
عصام دراز
رواية
الدموع والمطر
رواية تدور أحداثها في لندن

إهداء ٢٠١٠

الاستاذ / عصام دراز
جمهورية مصر العربية

رواية

الدموع والمطر

قصة تدور أحداثها في لندن

تأليف : عصام دراز

الناشر

دار المنار الجديد

رقم الايــــداع	٢٠٠٨ / ٢٥٢٦

إهـــداء

" إلـي نجيب محفوظ "

أعظم شخصية أدبية في التاريخ

" كنت أكبر من نوبل .. بالحب في قلبك .. وبساطتك .. وتواضعك .. وإبداعك .. وإحترامك لذاتك وللغير بلا حدود .. " رحمك الله "

عصام دراز

{١}

عندما وصلت (لنـدن) كـان معـي كشـف طويـل بعنـاوين لأصدقاء ومعارف مصريين ، كان بعـض هـذه العنـاوين فـي شـمال لندن والبعض الآخر في الجنوب.

وبمجرد وصولي .. وبعد أن حجـزت فـى فنـدق فـى درجـة ثالثة بحى " ايرلس كورت " بدأت رحلـة البحـث عـن هـذه العنـاوين دون إبطاء .

وعندما فشلت فى العثور على أحد مـنهم قـررت العـودة مـرة أخرى إلى الفندق واستكمال البحث فى اليوم التالى .

وهكذا مضى اليوم الأول فى البحـث عـن رفيـق أو مرشـد .. ورغم أن المدينة الإنجليزية الكبيرة فتحـت لـى شـوارعها ، وأجابـت عن أسئلتى ، وأرشدتنى عندما تهت أكثر من مرة .. فقـد شـعرت مـع انتهاء النهار بالإحباط لسبب لم أعرفه .

كانت الأمطار قد بدأت تهطل فـى نغـم هـادئ أثنـاء عـودتي مرهقاً إلى الفندق وغشىَ الكونَ كله مسـحة رقيقـة زرقـاء حزينـة .. وعندما كنت أسرع الخطا متخذاً أقصـر الطـرق ، مسـتتراً بالمنـازل ومظلات محطات الأتوبيس كان ثمة حـوار دافـئ هـادئ يـدور بـين الأشياء وبين قطرات المطر .. حوار أيقظ فـى نفـس حـب الاسـتماع و التأمل .. كنت فى الحقيقة قلقـاً محبطـا مـع سـاعاتى الأولـى فـى الزمن الشمالي البارد..كنت عاجزاً عن تفسير هـذا الحـوار المثيـر .. وعاجزاً أيضاً عن تفسير صداه الذى أسمعه داخلى.

كانت رموزه تتقاطر في خيالي ، باردة ندية ، مستديرة لامعة وتتشتت نفسي وتضيع بالتالي بين الرضا وبين الحيرة ثم الأمل .

كانت لندن التجربة والمكان ، والميلاد الجديد للزمان عالماً ساحراً مبهماً ممطراً بالآمال والأحلام والأيام المشبعة بسحر الغروب الضبابي الذي عشقته فيما بعد .. دخلت حجرتي بالفندق مبتلاً .. وجلست إلى مقعد ذي ذراعين ألتقط أنفاسي .. رحت أفكر بهدوء وأنا أتأمل المرآه الوحيدة المعلقة فوق حوض غسيل الوجه..

طالعت ورقة العناوين التي كانت معي ، ثم نحيتها جانباً وتمددت على الفراش لأريح جسدي مدى وأفكر في اليوم التالي .

نمت بملابسي حوالي ساعة ، وعندما استيقظت وجدت أن الليل قد هبط إلى المدينة من رذاذ المطر وراح يتجول في الطرقات المغسولة النقية نقاء الليل نفسه .. نظرت من النافذة بدا الجو داكناً بارداً واجتاحتني فجأة سحابة من القلق وأنا أنظر من النافذة والحجرة خاوية خلفي نصف مظلمة .. وعندما نظرت خلفي اكتشفت حقاً أني غريب في مدينة كبيرة .. بل أني وحيد وحدة عميقة .

اكتشفت لأول مرة أن قطرات المطر التي تسبح في ظلمة الليل وتنزلق فوق سقوف المنازل المائلة وسطوح السيارات ، وأغصان الأشجار ما هي إلا تعبير صامت خارجي ، كوني ، لا إرادي عن مدى تلك الوحشة والفراغ الذي يكمن داخلي وهذا ما كنت أخشاه حقاً.

أضأت النور.. وجلست مكاني لا أفعل شيئاً، ثم أحضرت حقيبتي الكبيرة لأشغل نفسي بإفراغ محتوياتها.. اكتشفت وجود وجبة كاملة كانت أمي قد أعدتها ودستها رغماً عني في الحقيبة قبل سفري كانت الوجبة عبارة عن دجاجة محمرة تحميراً جيداً مع قطع من اللحم المحمر والبطاطس المحمرة.. ولأنها كانت مفاجأة غير متوقعة لهذا لم أتوانَ لحظة عن التهام هذه "المفاجأة المحمرة اللذيذة"...

وعندما شعرت بالشبع أصابنى الخمول ،ثم الشعور بالقوة .. تدريجياً ثم شعور حاد فارغ باليأس والرغبة فى الخروج إلى الشوارع لإيقاف هذه المشاعر المتضاربة التى هاجت داخلي .

كان المطر قد توقف تماماً .. فى حين أن نسمة هواء باردة راحت تملأ الطرقات كلها .. سرت وسط الناس فى الشارع الرئيسى لحى " إيرلس كورت " ..

سرت حوالى ساعة .. ثم اخترت منها مقهي صغيراً لأتناول فنجانا من الشاى وأفكر.

وعندما حاولت أن أفكر فشلت تماماً .. لهذا تركت كل شيء فى ذهنى فى فوضى شاملة لعل الرياح – الرياح وحدها تقوم بتنظيمه.. أو تطيح به كله.

{٢}

استيقظت من نومى مبكـــراً ، أزحـــت الســـتارة عـــن النافـــذة .. ورحت أنظر إلى الشوارع بعيون النهـــار الجديـــد .. كانـــت الشـــوارع قد أصبحت أكثر وضوحاً وتحديداً ، فقد ظهـــرت ملامحهـــا جيـــداً بعـــد أن امتلأت بالسيارات وعلى الأرصفة كان الرجـــال والنســـاء يســـيرون بخطوات جادة مســـرعة وهـــم يرتـــدون المعـــاطف .. كانـــت الســـحب تتجمع حيناً وتتفرق حينـــاً آخـــر .. لاحظتهـــا جيـــداً كانـــت .. ســـحباً منتفخة دسمه كأبقار أحســـن تغـــذيتها وتربيتهـــا فـــى مـــزارع الســـماء وسهولها الواسعة .. تذكرت سحب بـــلادى .. العجفـــاء التـــى تمضـــى عبر السماء .. ولا تكاد تحـــس بهـــا ، فهـــى هزيلـــة جائعـــة وعنـــدما تمطر تمطر مرة أو مرتين فى عصبية وضيق ثم تمضـــى خائفـــة مـــن سياط الشمس المحرقة .

تناولت إفطارى فى قاعة الطعام بالدور الأرضـــى ثـــم صـــعدت إلى حجرتى وأخرجت أوراقى ورحـــت أحســـب ميزانيتـــى .. أخرجـــت ورقة العناوين ورحت أطالعها .قررت البـــدء فـــوراً فـــى البحـــث عـــن الأصدقاء الذين سيساعدوننى فى حل أول مشـــكلة يقابلهـــا الوافـــد إلـــى بلد جديد .. العمل والسكن الرخيص .

اشتريت من مكتب اســـتقبال الفنـــدق خريطـــة كبيـــرة لشـــوارع لندن ولمواصلاتها .. كانت الشمس قد سطعت فجـــأة فـــى ثقـــة واعتـــداد رغم السحب الشبحية المتلصصة هنا وهناك .

اتجهت الى أقرب عنوان وكنت قد مررت عليه في اليوم السابق .. دققت جرس الباب الخارجي ففتحت لي نفس السيدة العجوز التي يحيط بوجهها المتغضن هالة من الشعر الأبيض الذى بدأ كندف القطن .أما العروق النافرة فى ساقيها فقد بدت كأسلاك الكهرباء تحيط بها .. سألتها عن صديقى فظلت تتحدث وأنا لا أفهم شيئاً .. ولكننى استطعت أن افهم بطريقة ما أنه قد انتقل إلى منزل آخر .

وسألتها عن العنوان الجديد فأخبرتنى بأنها لا تعرفه .. ثم استدارت وراحت تعمل بالمكنسة الكهربائية لهذا أول عنوان .

كان العنوان التالى هو عنوان فندق كبير يعمل به أحد الشاب.. أحمل له رسالة من ابن خاله كتوصية وتعريف لمساعدتي.

بدراسة الخريطة استطعت أن أعرف خط " الأندرجروند " الذى أركبه .ركبت " الأندرجروند " من أقرب محطة واستطعت الوصول بسهولة إلى المحطة المطلوبة .. وعندما خرجت إلى الشارع وجدت نفسى فى ميدان واسع يضج بالصخب والحياة .. وسط الميدان كانت هناك حديقة صغيرة رائعة تقف فى وسطها أشجار قوية عملاقة .. كان بائعو الصحف يقفون بجوار المحطة وفى أركان الميدان . والحمام الرمادى اللون يسير على الأرصفة وسط الناس غير مبال بالزحام ولا بالضجيج .. احترت للحظة ثم اضطررت لأن أسأل أقرب بائع صحف .. كان رجلاً سميناً ، متهدل الخدين ، ذا كرش بارز مستدير ويضع على رأسه " كاسكيت " أسود .سألته عن العنوان فأجاب على سؤالى بكلمات

عديدة خرجت من فم خال من الأسنان كانت شفتاه الطريتان تدخلان وتخرجان تنطبقان فوق بعضيهما بطريقة مضحكة لم أفهم شيئاً من كلماته الإنجليزية المتآكلة الطويلة .. ولكنى سرت حسب وصفه بالتقريب وبعد سير لمدة نصف ساعة اكتشفت أننى تائه .

لم أتردد واتجهت إلى العنوان الذى يليه .. وكان فندقاً كبيراً بمنطقة " فيكتوريا " وبمجرد دخولى لاحظت مظاهر الفخامة واضحة . كانت الأرض مغطاه بالبسط الملونة ومن السقف تدلت ثريات كبيرة مضاءة .. أعطى ضوؤها للقاعات والردهات مسحة من الثراء والعظمة .. كان النزلاء يملأون مدخل الفندق وأروقته .. وبمجرد سؤالى عن الاسم استطعت أن أعرف أنه يحتل منصباً كبيراً فى إدارة الفندق .. قادنى إلى مكتبه أحد موظفى الاستقبال .

كان يجلس خلف مكتب يتصدر الغرفة ، عرفته بنفسى فنهض ليصافحنى أعطيته الخطاب ففتحه بسرعة ووقف بجوارى وهو يقرأ أسطره .كانت تجلس فى الغرفة فتاة إنجليزية جميلة راحت تنظر نحوى بفضول .

انتهى من قراءة الخطاب وعبر بوجهه عن دهشته. نظر إلى بإشفاق وهز رأسه بأدب وقال بإنجليزية سليمة .. ثم العربية :

- أنا لا أستطيع أن أساعدك ..

لم أتكلم ولكنه لوح بيده فى حركة تمثيلية يائسة مبالغ فيها .. وبالإنجليزية أيضاً قال:

- أنا آسف جداً " لا يوجد لك عمل هنا .. ولا أستطيع أن أفعل لك شيئاً "

كان شاباً وسيماً أنيقاً ، ورغم ملامحه المصرية فقد اكتسب الروح الإنجليزية فى تصرفاته .. ذلك البرود المهذب .. قال مرة أخرى بأدب بالغ استفزنى :

- أنا آسف جداً .. جداً .

مددت يدى لمصافحته استعداداً للانصراف ، إلا أنه قال بعد لحظة تفكير:

- على أى حال .. سأكتب لك رقم تليفونى لتتصل بى إذا احتجت لأى شيء... قال ذلك فى إطار كاذب من التواضع ، وصل إلى أعماقى المعنى الذى يريده بالضبط . شعرت بالكراهية له رغم وسامته وأناقته.

لحق بى وأنا أستعد للانصراف وأعطانى ورقة صغيرة بها رقم تليفونه واسمه بالإنجليزية .

وخرجت بعد أن أرغمت على مصافحته وبمجرد خروجى إلى الشارع مزقت الورقة التى كتب بها عنوانه وألقيت بها فى أقرب صندوق قمامة .

{٣}

أخيراً استطعت العثور على سكن بمساعدة أحد المصريين.. كانت حجرة فى منزل يقع فى منطقة هادئة بالقرب من " هوايت سيتى " كان يحيط بالمنزل الصغير ذى الطابقين حديقة صغيرة أمامية وأخرى خلفية .. كانت غرفة تقع فى الطابق الثانى .. وكانت حجرتى هى الغرفة الوحيدة المؤجرة لهذا تميز المنزل بالنظافة والأناقة .. وكانت للحجرة نافذة واسعة تطل على الحديقة الأمامية والشارع .. كانت صاحبة المنزل امرأة تجاوزت الخمسين من عمرها ، وفى اليوم الأول دعتنى لتناول الشاى معها وزوجها.. وأثناء تناولى الشاى معه لمحت صورته بالملابس العسكرية تتصدر غرفة الجلوس .. وعلمت منه أنه كان طياراً وشارك في الحرب العالمية الثانية .. وأنه قاتل فى أكثر من جبهة وأكثر من معركة فى أوروبا وأفريقيا .

وكان فى وجهه صرامة وعزم . أما زوجته فقد كانت مبتسمة دائماً وتملأ المكان بأسئلتها وحركتها وضحكاتها.

جلست وحدى فى الغرفة بعد أن أخرجت أشيائى من الحقائب .. رحت أتامل الحجرة والضوء يتقاطر حولى من مصباح أنيق مدلى من السقف.

قررت عدم الخروج والبقاء بالمنزل للراحة .. فقد مضى على خمسة أيام طفت فيها بلندن طولا وعرضاً بحثاً عن العناوين.. نمت مبكراً من الإرهاق وفى الصباح خرجت مسرعاً بعد تناول

الشاى .. اتجهت إلى عنوان قريب لى لـم أوفـق فـى مقابلتـه حتـى بعد عثورى على العنوان الصحيح وكنت قد تركت لـه رسـالة أخبـره فيها بوجودى فى لندن وجدت انه أيضاً قـد تـرك لـى رسـالة شـفوية مع أحد الأصدقاء المصـريين الـذين يقطنـون نفـس المنـزل .. لقـد أخبرونى بأنه سيعود بعد ساعة.

خرجت من منزله ورحـت أتجـول فـى منطقـة " بـادنجتون " التى يسكنها ورحت أتسلى بالسؤال عن عمـل .. سـألت فـى الفنـادق والمطاعم القريبة ولكنى لم أوفـق إلـى شـيء وعنـدما عـدت مـرة أخرى وجدته فى انتظارى .

كان " على " يمت لى بصلة قرابة ولكنهـا بعيـدة .. وكنـا قـد تزاملنا فى الدراسة فترة من الزمن وكانـت علاقتـى بـه قـد انقطعـت عندما دخلت أنا جامعة القاهرة ودخل هو جامعة الإسكندرية .

لقد علمت من أسرته أنه قد استقال من العمـل كمـدرس للرسـم وسافر إلى لندن وكان عنوانه هـو العنـوان الصـحيح الوحيـد الـذى استطعت العثور عنيه .

كان " على " يتميز منذ سنوات الدراسـة بالـذكاء الحـاد وجسـم متوسط الطول أقرب إلى القصـر منـه إلـى الطـول ووجهـه وسـيم وملامح دقيقة جذابة تجعله محظوظاً مع الجنس الآخر .

كان قد شق طريقه فى الفـن بعـد تخرجـه مـن كليـة الفنـون الجميلة ولفت الأنظار إلـى أعمالـه الفنيـة فـى الرسـم والتصـوير. وعندما لم يجد التقدير الكافى المـادى والأدبـى ، وعنـد نقطـة معينـة

شعر بأنه يهدر حياته كلها دون طائل فقـرر السـفر وأن يهجـر الفـن والوطن ليبحث عن طريق جديد تماماً .

تناولنا الشاى والحديث يدور بيننا فى حجرتـه التـى تقـع فـى الطابق الثالث من منزل إنجليزى عتيق.

طال بنا الحديث عن مصـر ، وعـن إنجلتـرا .. أعـد وجبـة خفيفة تناولناها مع أقداح الشاى .. تحدث معى عن تجربتـه فـى لنـدن وكيف شق طريقه بصعوبة بالغة إلـى أن وصـل إلـى درجـة نائـب مدير المطعم الذى يعمل به .. فقـد وصـل إلـى لنـدن ولـيس بجيبـه سوى خمسة جنيهات لأنه فقد حقيبته أثناء السـفر وبهـا كـل أشـيائه .. حدثنى عن تجاربه العاطفية وهو يقلب فى ألبـوم صـور أخرجـه مـن الدولاب .. وعندما كنا نستعد للخروج وقف ليلخص تجربته لى :

- إبراهيم .. سأنصحك نصيحة هامة .. لـم يقـدمها أحـد لـى .. ولكننى تعلمتها بالتجربة .

أكمل قائلاً :

- أنت مصرى .. وأنـا كـذلك .. لهـذا أنـا أفهمـك كمـا أفهـم نفسى..

- وضع الألبوم فى الدولاب ثم التفت لى وقال :

- من الآن انس عواطفك .

أكمل بهدوء بعد أن لاحظ حيرتى :

- فى علاقتك بالجنس الآخر بالذات .. انس طباعنا الشرقية.. الجنس هنا هو العاطفة وهو العملة المعترف بها .. بعيداً عن الرومانسيات والأحلام.

أكمل قائلاً ونحن نستعد للخروج.

- إذا أعجبتك فتاة تقدم إليها دون تردد وادعها للخروج .إذا اعتذرت فلا تحزن ولا تنزعج حاول مع فتاة أخرى بمنتهى البساطة .. وإذا قبلت الفتاة الخروج معك مرة واثنين ففى المرة الثالثة يجب أن يكون اللقاء فى منزلك أو منزلها. لا تضيع وقتك أو وقتها .

خرجنا من المنزل ، سرنا سوياً فى شارع " بادنجتون "

- لا مجال هنا للمشاعر الحارة .. الجنس هو الأساس .. كما أن المادة والمادة وحدها هى أساس النجاح فى العمل والحياة.

لم أعقب على كلامه .. كانت كلماته شديدة الوقع على نفسى وكأن ما أحمله من تراث عاطفى أصبح الآن نوعاً من السذاجة والتخلف .

أكمل قائلاً :

- فى العمل .. ضع مصلحتك فوق كل شيء.. لا مجال "" للجدعنه " وعندما تجد عملاً يعطيك بنساً واحداً زيادة .. اترك عملك واذهب إلى الذى يعطيك أكثر .

قال ونحن نعبر الطريق :

- لا تنس أننا هنا غرباء .. مهما طـال بنـا الـزمن .. والطريـق صعب والعودة إلى الخلف مستحيلة .

قال ونحن نخرج من فندق سألنا فيه عن عمل لى فلم نجد :

- سوف تظل تفكر فى الـوطن .. مصـر .. مهمـا حققـت مـن نجاح .

قلت حزيناً ويائساً:

- الوطن ؟

قال وهو يسرع فى خطواته ونحن نعبر الطريق :

- ذلك الشعور.. وتلك الكلمة .. يحملهما الإنسـان معـه فـى كـل مكان مهما حاول النسيان.

- قلت خاصة نحن المصريين .

سألنى مذعوراً :

- هل بدأت تفكر فى العودة ؟

ترددت قبل أن أجيب :

- لا .. فعندى مـن المـرارة مـا يكفينـى للقضـاء فـى الغربـة عشرات السنين .

أكمل دون أن يلتفت إلي :

- الوطن .. نعم .. إذا شعرت بذلك الضعف ،أو تذكرت سماء مصر الصحو .. والنيل الذى ينساب منذ آلاف السنين واثقاً وممتلئاً، دس عليه فوراً .. وإلا فسوف تتحطم ..

قلت ساخراً :

- إننى الآن لا أفكر إلا فى العثور علي عمل ينقذنى قبل أن أعود إلى مصر سيراً على الأقدام .

علق واثقاً :

- سوف تجد العمل .. واقبل أى عمل فى البداية .. وسوف تظل تحلم به .أقصد بالوطن .. مهما حققت من نجاح .. وكلما ابتعدت عنه فى الزمان والمكان سوف تتحداك روحك ويزداد بحثها عنه ..

لم أستطع الكلام. وسكت وأنا أفكر في كلماته.

بحثنا عن عمل لى فى أكثر من مكان وسأل عند كل أصدقائه فلم نوفق .وبعد حوالى ساعتين من السير ودعته على أمل لقاء قريب .

أمضيت الليل قلقاً ، فقد كنت أفكر فى أيامى المقبلة .. لم أنم إلا قليلاً .. وعندما استيقظت صباحاً على صوت عصفور يزقزق خارج النافذة كنت فى حالة رضا وشبه سعادة .

انشرح صدرى عنـدما صـافحت نظراتـى أغصـان الشـجرة الكبيـرة خـارج سـياج الحديقـة الأماميـة .. وعلـى الأرض كانـت الأوراق ترتعش وأشعة الشـمس تغطيهـا وتعطـى للأغصـان مسـحة غنائية جميلة .

خرجت إلى الشارع بعـد تنـاولى الشـاى .. كانـت أغصـانى تلوح ، وقلبى يرتجـف فـى الأعمـاق .. نشـوة التجربـة الجديـدة .. أمضيت النهار كله باحثاً عن عمل .. كان ما يقلقنـى دائمـاً هـو اليـوم التالى .. حيث ستنفذ نقودى كلها خاصة وأننى دفعـت إيجـار الحجـرة مقدماً لمدة أسبوعين .. تطايرت النقود خـلال الأيـام القليلـة الماضـية كتطاير أوراق الشـجر الجافـة فـى الخريـف .. وبعـد أن أمضـيت حوالى خمس ساعات فى تجـوال مسـتمر .. هبطـت عزيمتـى إلـى الصفر .. وبدأت الأفكار تتجمد فـى رأسـى وتطفـو كقطـع الـثلج .. قررت تناول القهـوة مـع بعـض السندويتشـات فـى أحـد المحـلات المنتشرة على صفى شارع " اكسفورد " الشهير .

لمحت أثناء خروجى من المطعـم وبعـد تنـاولى للقهـوة شـاباً يبدو أنه مصرى يعمل جرسـوناً فـى نفـس المطعـم .. أومـأت إليـه محيياً فرد التحية .. سألنى إن كنـت مصـرياً فابتسـمت إليـه وحدثتـه بالعربية..اقتربت منه وصافحته، سألنى عن سـبب وجـودى بلنـدن.. وعندما علم أننى أبحث عن عمل منذ عـدة أيـام تـرك مـا فيـه يـده وأخبرنى بأنه يعرف مطعماً يحتـاج لشـخص .. كتـب لـى بسـرعة

عنوان المطعم ... وكتب أيضاً اسم صديق لـــه يعمـــل هنـــاك .. وهـــو شاب سوري . وطلب منى أن أتجه بسرعة إلى العنوان .

انطلقـــت إلـــى المطعـــم حســـب العنـــوان فوصـــلت بســـرعة وسهولة.

سألت عن الشاب المصري .. وكـــان يقـــف بـــالقرب منـــى دون أن أعرفه وما إن سمعنى أسأل عنه حتى قدم لـــى نفســـه وصـــافحنى.. أعطيته الورقة التى كتبهـــا صـــديقه قرأهـــا بســـرعة ثـــم طلـــب منـــى الجلوس .

جلست على منضدة فى أحـــد الأركـــان قـــادنى إليهـــا .. عـــاد " رضوان " وكان هذا اسمه بعد دقيقتين وهو يحمل قـــدحاً مـــن الشـــاى.. كان يرتدى ملابس العمل .

جلس بجوارى ثـــم راح يســـألنى عـــن الأحـــوال فـــى مصـــر ، وأخبرنى بأنه ترك الجامعة قبل أن ينهـــى دراســـته بكليـــة الهندســـة .. وأنه غير نادم على ذلك .. وقبل أن أنتهـــى مـــن تنـــاول الشـــاى قـــال لى:

- بالفعل .. نحن محتاجون لشخص يكمل العاملين بالمطعم ..

سألنى بسرعة :

- هل خضت تجربة العمل من قبل هنا فى لندن ؟

أجبته بالنفى .. فسألنى مرة أخرى :

- هل تعرف نوع العمل الذى ستقوم به ؟

قلت له :

- لا ،لا أعـــرف بالتحديـــد ولكننـــى أحمـــل بكـــالوريوس تجـــارة ودراسات عليا فى المحاسبة وكنـــت أعـــد نفســـى للحصـــول علـــى الماجستير والدكتوراه .

قال وكأنه يعتذر مقدماً :

- نحن نريد عاملاً لغسل الأطباق .

سكت لحظة تأملنى فيها .. ثم أكمل بسرعة :

- هل أنت مستعد ؟

قاومت نظراته لأبدو شـــجاعاً . أجبـــت بهـــدوء وثقـــة اســـتجمعتهما بصعوبة :

- نعم مستعد.

ابتسم وكأنه يهنئنى على قرارى وقال :

- موعدنا باكر .، الساعة العاشرة بالضبط لنبدأ العمل .

{٤}

أخذنى " رضوان " إلى المطبخ بعد وصـولى مباشـرة .كـان باقى العاملين بالمطعم قـد وصـلوا قبلـى وبـدأوا فـى العمـل . راح يشرح لى واجبى . كان المطبخ عبارة عـن حجـرة ذات بـاب واحـد يفتح على صالة المطعم الرئيسية وكان عملـى يـتلخص فـى اسـتقبال الصحون الفارغة مـن نافـذة صـغيرة علـى يمـين حـوض الغسـيل الرئيسى وهى تطل على صالة المطعـم حيـث يحضـرها الجرسـونات تباعاً .

وفى البداية يتم إفراغ محتويـات الصـحون ثـم غسـلها فـى الحوض بتيار من المياه والصابون السائل ، ثم توضـع بعـد ذلـك فـى ماكينة الغسيل الكهربائية وهى عبارة عـن ماكينـة كبيـرة تعمـل آليـاً بعد الضغط على زر فى جانبها . وبعـد أن يـتم غسـل مـا بهـا مـن صحون وأوان يرتفع غطاؤها وتظهر الأوانـى مغسـولة وبخـار المـاء يتصاعد منها والماء يتقاطر منها .

صعدت معه إلى الدور العلوى حيـث غيـرت ملابسـى فـى غرفة رطبة بلا نوافذ ولا فتحات سوي بـاب خشـبى .. لبسـت لـبس العاملين وهو عبارة عن فانلة كتب عليها اسـم الشـركة .. ثـم مريلـة زرقاء بحمالتين فوق القميص والبنطلون .

تعرفت أثناء عملـى بالعـاملين بـالمطعم .. كـان " سـامى " مدير المطعم شـاباً مصـرياً متجنسـاً بالجنسـية الإنجليزيـة .. ثـم " عدنان " وهو سـورى الجنسـية ويعـيش فـى لنـدن بعـد أن تـزوج

إنجليزية ثم " رضوان " مساعد الطباخ الذى استقبلنى . ثم " أحمد " وهو مصرى من الإسكندرية وهارب من التجنيد ويعيش فى لندن منذ سبع سنوات .

كان معنا أيضاً شاب إنجليزى فى التاسعة عشرة من عمره يعمل عدة أيام ثم يغيب عدة أيام أخرى .. وعندما يحضر تظل صديقته بالخارج تنتظره وهى تدخن أو تقرأ فى كتاب وتشرب " مجاناً " قهوة وشاياً طول الوقت ومن حين إلى آخر يذهب إليها ويعبث بشعرها ثم يقبلها ويعود إلينا بوجه متهلل ويظل يغنى وهو يعمل ضابطاً لإيقاعات الأغاني بحركة أقدامه وهزة رأسه .

أما الجرسونات فكن " ليلى " وهى مصرية بالسنة النهائية بكلية التجارة .. " وثناء " اللطيفة المرحة المبتسمة دائماً.. ثم "سيلفى" السويسرية الجميلة ثم " بولا " الفنلندية ثم شاب إيطالي طويل القامة.. صامت دائماً.

عندما بدأت العمل ..بدأ سيل الأوانى الفارغة فى الهجوم من النافذة ظل السيل يزداد مع ازدياد الزوار أطباق،ملاعق ،شوك، سكاكين، فناجين ، قهوة ،وشاى بلا عدد أطباق سلاطة صغيرة ، كئوس نبيذ وأقداح بيرة .. سيل لا يتوقف بازدياد وقت الغذاء الذى بدأ فى الثانية عشرة.. كنت أعمل كالآلة دون توقف .. كنت أستلم الأطباق وأضعها فى الحوض.. ثم أسلط عليها تياراً من الماء الدافيء.. ثم أضعها فى الماكينة ثم أغلقها وأضغط على الزر فأجد كوماً أخر ينتظرنى.. وبعد إعداد الكوم الجديد.. تكون الماكينة قد غسلت ما بها فأخرجه منها وأحمله لأضعه على رف مخصص بجوار الطباخ ليستخدمه فى الوقت المناسب وأبدأ فى وضع

الأطباق الجديدة فى الماكينة.. ثم أبدأ فى تجفيف الملاعق والشوك والسكاكين بواسطة فوطة وأضعها فى صندوق مخصص.. كل هذا فى وقت واحد ودون انقطاع.

قدم لى "رضوان " فنجاناً من القهوة فلم أستطع أن ألتفت إليه .. ظل الفنجان بجوارى أكثر من ساعة ، وعندما أخذت منه رشفة وجدته بارداً فألقيت بالقهوة فى الحوض ثم وضعت الفنجان فى ماكينة الغسيل وعندما نظرت فى الساعة مصادفة ,كنت قد خلعتها ووضعتها فى جيب البنطلون فوجئت بأننى قد أمضيت خمس ساعات كاملة دون أن أشعر بالوقت نهائياً ..

كانت الشمس قد غربت بالخارج والمحلات أضاءت مصابيحها فشعرت بحزن مبهم .. شعرت بآلام حادة فى ظهرى وأنا أعتدل فى وقفتى .. كان أمامى الكثير من الواجبات فقد كان المطعم يقدم وجبة رئيسية هى " البيتزا " وهى وجبة شعبية إيطالية انتشرت في بريطانيا انتشاراً كبيراً وعمل البيتزا يمر بسلسلة من المراحل تبدأ بعجن العجين بواسطة آلة تقع فى ركن المطعم وتطل برأسها الحديدى وأذرعها تعمل في إناء معدني كبير حيث يوضع به الدقيق ويخلط بالماء كان إعداد .. وبعد عجن العجين تتم تقطعيه ووضعه فى صوان مخصصة لذلك وبعد ذلك يتم رش العجين " المبطط " فى الصوانى بالصلصة .. ثم الجبن المبشور وبعد هذا كله يوضع البصل أو الفلفل الأخضر والزيتون الأسود وقطع من لحم الدواجن أو الجمبرى حسب الطلب .. هذا بالإضافة إلى الصلصات المختلفة .. والمكرونة الإسباجتي أكثر سهولة .. كان كل من المطبخ يقوم بواجباته دون كلمة أو توجيه كالآله

بالضبط ،فلا كلمة أو تعليق إلا نادراً. ولا صوت إلا صوت الآلات التي تعمل واحتكاك صواني البيتزا. ثم من الطرف الآخر صوت احتكام الصحون والملاعق والشوك والسكاكين.

وقبل أن أنتهى من العمل .. كان من واجبى إعداد سلطة باكر فى حين أن الطباخ ومساعده " رضوان " راحا يعدان الدقيق والصوانى لعمل بيتزا اليوم التالي " .

انتهيت من العمل فى الثامنة مساءً بعد عشر ساعات كاملة من العمل تخللتها عدة دقائق لتناول الشاى. بعد فترة الغداء.. جلست على المنضدة المخصصة للعاملين وكان قد سبقنى إليها الطباخ ورضوان و " ليلى " وتناولت طعاماً مكوناً من المكرونة الإسباجتى والسلاطة..ثم شربت فنجاناً من الشاى ..

عندما خرجت من المطعم كان الوقت ليلاً .. والسماء تمطر مطراً غزيراً أغرق كل شيء.. وأضواء المحلات تسقط على الأرض وتتكون دوائر لامعة تفترش الأرض بلا نظام .

وعندما وصلت المنزل وجدت نفسى غير قادر على تحريك ذراعى الأيمن ثم شعرت بآلام حادة لا تطاق .

استلقيت على الفراش وأنا منهك القوى .. ولم أفكر فى شيء سوى آلام ذراعى وظهرى .

{٥}

خرجت فى الصباح مسرعاً .. فقد تأخرت فى النوم .. كان الجو بارداً وأنا أسرع الخطا إلى محطة الأتوبيس واستطعت أن ألحق بالأتوبيس وأن أصل فى الميعاد بالضبط .

طلب منى الطباخ أن أساعده فى تزييت صوانى " البيتزا " فقمت بتزييت أكثر من مائة صينية فى أقل من ساعة بفرشاة صغيرة مثل فرشاة دهان الأبواب والشبابيك .

اعتبارا من الساعة الثانية عشرة بدأ طوفان الأوانى مرة أخرى .. وتعلمت أن أعمل بيدى وعقلى متوقف عن العمل تماماً.. أو شارداً بعيداً بلا حدود وصوت الملاعق والأطباق لا يتوقف .. ولكننى شعرت فجأة بالألم تكرر فى أحشائى وصدرى يلتهب .. كادت الدموع تفر من عينى .. هجمت على ذكرياتى كلهامرة واحدة .

كلمة جارحة وجهها مدير المطعم لنا .. ورغم أن الطباخ " أحمد " رد عليه فقد استمر يصرخ وهو يقف على باب المطبخ ومن خلفه صالة المطعم ممتلئة بالزبائن والعمل على أشده والكل يعمل دون توقف .. لم يكن هناك أى مبرر لمثل هذا الانفعال .. ولكننى اكتشفت منذ هذه اللحظة أن هذا المدير الشاب إنسان مغرور .. كانت كلماته تنبهنى إلى حقائق تائهة فى زحمة الأطباق والملاعق فأنا الآن مجرد غاسل أطباق .

كان من المستحيل أن أعبر عن غضبى .. فقد كان باستطاعته أن يطردنى من العمل دون سبب .. وأنا لا أحمل تصريحاً بالعمل . مضغت الكلمات وابتلعتها رغم ما بها من مرارة.. مرت دقائق والدم يغلى فى عروقى ورأسى .

كانت الموسيقى تتناهى إلى سمعى من صالة المطعم وضحكات الرواد تصل إلى أذنى وسط ضجيج الأطباق والعمل بالمطبخ فأزداد سخطاً وكأن الموسيقى المرحة تسخر منى " ومن موقفى " ثم من مهزلة الحياة كلها . كانت " نيلى " الطيبة ، و " ثناء " المبتسمة دائماً و " سيلفى " السويسرية يملأن المطعم بالحركة والحياة وهن يلبين طلبات الرواد .

خرجت من المطعم دون أن أتناول وجبتى اليومية كانت ذراعى تؤلمنى آلاما مبرحة .. والكلمات الجارحة أستعيدها فى ظلام الليل وبرودة الشوارع ووحشة أعمدة الإضاءة سرت حزيناً .. مفكراً أجتر المرارة ..وصلت إلى "ميدان البيكاديللى" دون أن أشعر. كانت الأضواء والوجوه والصور العارية تتحد أمامى ، ثم تتداعى وتتفرق إلى ما لا نهاية .

لقد حلمت دائماً بالخروج من قوقعة الأحزان والحيرة .. وهنا حلمت بفصل جديد فى فصول حياتى التى تشبه رواية سيئة التأليف.

كنت أقوم بإعداد " الصلصة " كالعادة .. وكان إعدادها لا يحتاج إلى مجهود كبير .. من عصر الطماطم فى إناء كبير .. ثم

إضافة نوع آخر من الطماطم المركزة ، محفوظة في العلب ثم إضافة السكر ثم الماء بنسبة محددة لتحتفظ بقوام ومذاق معين .

ودخل " سامى " مدير المطعم وأنا منهمك فى العمل وراح يلقى الأوامر .. اقترب بدون سبب عندما كنت مشغولاً عنه تماماً.. وعندما استدار لسبب لا أعرفه وجدت الإناء الكبير يتأرجح بعد أن اصطدم به أثناء حركته .. وفى طرفة عين وجدت أرض المطبخ مغطاة بكمية هائلة من الصلصة .تدفقت الموجة الحمراء القانية فى الأركان وأنا مذهول .. امتقع لونه .. قلت يائساً :

- لو لم تتحرك كنت استطعت أن أنقذ الموقف ..

حاول أن يستدير هو غاضباً إلا أنه أنزلق وسقط على الأرض غارقاً فى السائل الأحمر اللزج .

تعالى ضحك "ثناء" و"سيلفى" أما أنا فقد كتمت ضحكتى فى نفسى .. قام بصعوبة وهو غاضب أشد الغضب. تكهرب الجو وقام " رضوان " بمساعدتى فى جمع الصلصة ومحاولة عمل صلصة جديدة .. كانت الخسارة المادية ليست كبيرة ولكن كان الأهم هو الوقت الضائع والارتباك الذى حدث عاد " سامى " بعد أن اغتسل وغير ملابسه قال غاضباً وأنا منهمك فى عمل صلصة جديدة :

- سوف أخصم ثمن الصلصة من مرتبك .

ولأن ثمن الصلصة يساوى مرتب أسبوع كامل قلت مندهشاً :

- لو لم تتحرك مرة ثانية ..

قاطعنى قائلاً :

- أنا لم أتحرك ..

قلت له :

- لقد اصطدمت بالإناء أثناء حركتك بالضبط عندما ..

قاطعنى غاضباً بثورة لا مبرر لها سوى الرغبة فـــى الهــروب مــن المسئولية:

- لم يحدث .. فأنت الذى دفعت الإناء ..

قال وهو يهم بالانصراف :

- سوف أخصم ثمن الصلصة من مرتبك .

شعرت باحتقار شديد له .. توقفت عن العمل وخرجت من المطعم وأنا فى أشد حالات الثورة استعدت المشهد فى خيالى.. فعندما اصطدم هو بالإناء كان أمامى فرصة لأن أحاول مجرد محاولـــة .. ولكـــن شـــعورى بتوتره جعلنى أتردد لحظة فى نفس الوقت قام بحركته الثانية التى أنهت كل شيء.

استمتعت فى خيالى بمنظـــره وهـــو علـــى الأرض غارقـــاً فـــى الصلصة.. اكتشفت فى هذه اللحظة أنه مهزوز الشخصية رغـــم غـــروره وعجرفته .

جلست بجوار " سناء " وكانت علاقتى قد توطدت بالزملاء بمرور الوقت بادرتها قائلا :

- لن أستطيع أن أستمر فى العمل بهذه الطريقة .

كان قد مضى على فى العمل أكثر من شهرين بالمطعم ، وكانت شخصية " سامى " وطريقته هى أسوأ ما فى الشهرين ..

كانت " ليلى " منهمكة فى إعداد المناضد .. أما " ثناء " فقد كانت جالسة تستريح قالت مبتسمة :

- ماذا نفعل هذه طباعه؟

قلت محتداً:

- إنها طباع طفل صغير .. وليس رجلاً مسئولاً .

هزت برأسها وقالت هامسة يائسة :

- ولكننا لن نستطيع أن نختار رؤساءنا وفق هوانا .

لم أعقب وتناولت قدحاً من القهوة .. ثم غيرت ملابسى وأثناء انصرافى لحقت بى " ثناء " وكانت قد انتهت من العمل ، أما " ليلى " فقط كانت ستنتظر حتى إغلاق المطعم فى الحادية عشرة .

كانت الشوارع مزدحمة بالناس ، والسماء تنشر الرذاذ الخفيف .. فتحت " ثناء " شمسيتها السوداء الصغيرة ورفعتها فوق رأسينا لتحمينا من الرذاذ فشعرت بالراحة والألفة لأول مرة فى لندن وكأنى فى منزلى بالضبط ، أخبرتها بأنى أنوى ترك العمل .. فقالت لى إن العثور على عمل هذه الأيام مستحيل لقد انتهى الآن

موسم الصيف والعثـور علـى عمـل فـى الفنـادق والمطـاعم مـن الصعوبة بمكان .

هدأت ثورتى بعض الشيء ، كان الجـو قـد ازداد بـرودة مـع هبوط الليل دخلت أحد محلات "اخدم نفسـك" تناولنـا مشـروباً دافئـاً ، ثم سرت معها حتى محطة الباص .. تحدثت معهـا كثيـراً عـن نفسـى وعن حياتى ، أما هى فقد كانت تستمع وتعلـق مـن حـين إلـى آخـر فقط .. سألتها فجأة :

- هل تعيشين مع زوجك هنا ؟

قالت مبتسمة :

- أنا مخطوبة فقط ..

- ولكنك تضعين الخاتم فى إصبع يدك اليسرى ..

ابتسمت وهزت رأسـها ، فلـم أفهـم ، ولكنـى لاحظـت ولأول مرة أنها تخفى فى نفسها شـيئاً غامضـاً خلـف ضـحكاتها ، ومرحهـا وتألقها وبراعتها الحلـوة .. ودعتهـا ومضـيت إلـى منزلـى دون أن أفكر فى شيء .. أخبرت " سامى " فـى اليـوم التـالى برغبتـى فـى ترك العمل .

كانت مفاجأة له .. فقد تعود أن يقـوم هـو بطـرد مـن يشـاء خاصة مـن أمثـالى الـذين لا يحملـون تصـريحاً بالعمـل .. ويظـل التهديد بالطرد قائماً ومسلطاً كالسـيف .. ورغـم محـاولات الـزملاء

فقد صممت على موقفى .. وعندما خرجت مـــن المطعـــم لآخـــر مـــرة شعرت بأنى قد تحررت من شيء يجثم على صدرى .

أخبرتنى " ثناء " أثناء وداعى لهـــا بأنهـــا ســـوف تحتفـــل بعيـــد ميلادها فى عطلة نهاية الأســـبوع .. ووجهـــت لـــى الـــدعوة لحضـــور الحفل .

وكتبت لى عنوان منزلها وكيفية الوصول إليه .

{٦}

كنت أعرف صعوبة قرارى.. البطالة ستواجهني ورغم ذلك لم أفكر فى التراجع.. كان الوقت ليلاً، حيث شعرت لأول مرة بمعنى أن أكون غريباً.. سرت ساعات طويلة وفى النهاية تناولت عشائى في أحد المطاعم الصغيرة، ودخلت سينما وسط البلد (الوست إند).. أردت أن أكافئ نفسى.. وأن يكون قرارى وفق إرادتى مهما كانت التضحية وكان هذا يحدث لأول مرة فى حياتى تقريباً.

استيقظت فى صباح اليوم التالى على مهل ، ورحت أنظر خلال النافذة إلى الحديقة والشارع .. كانت يدى تؤلمنى آلاما حادة.. خرجت لأزور معارفى وأطلب منهم أن يساعدونى فى البحث عن عمل .. تناولت غدائى مع قريبى " على " فى منزله.

هبط الليل وأنا ألوذ بالشوارع من نفسى.. منى أنا.. كانت جراحى تستيقظ وتقذف ما بها.. أما شوارع لندن فقد كانت ملاذى الوحيد الذى تعلمت أن ألجأ إليه.. تعلمت كيف أدير حواراً نابضاً بينى وبينها.. تعلمت أيضاً كيف أقسو على نفسى كما تقسو الأيام على.

سرت وحدى فى ليل المدينه المتسع كأنه بلا نهاية ، وأعمدة الإضاءة تسكب الضوء على الأجناب والنسائم الباردة تصفع وجهى صفعاً .. فأنكمش فى معطفى وسكارى الليل يقبعون فى الأركان يحتضنون زجاجات وهم السعادة والنسيان وكلماتهم تتناثر حولهم كأعقاب السجائر وعيونهم غائمة فى حلم مخمور لا نهاية له .

كنت أهرب من الأفكار التى كانت تطفو على سطح عقلى كالأسماك المتعبة ، أى طريق أسير فيه ؟

أى ليل هبط على حياتى رغم فوانيس الإضاءة ؟.

كنت أشعر بالحنان فى برودة الرذاذ .. وحاجتى للدفء الحقيقى تزداد بلا نهاية وأنا أمضى كنسمة هواء فى الشوارع الباردة .

استقبلتنى " ثناء " لدى دخولى وهى مبتسمة ، متألقة الوجه، متأنقة الملبس وأبديت إعجابى لحظة دخولى بجمالها وتسريحة شعرها فشكرتنى مبتسمة وقدمتنى لخطيبها " نادر " ثم قدمتنى بعد ذلك لفتاة فلبينية جميلة ، ومن غمزة عينها منها فهمت أنها قد اختارت لى هذه الفتاة لترافقنى وتجلس معى فى هذه الليلة ، لكى لا تحرمها وتحرمنى أيضاً من متعة المشاركة فى مثل هذه الليلة .

كانت الشقة التى تقيم فيها "ثناء " مع خطيبها وزوجها المنتظر مكونة من حجرتين حجرة للنوم وحجرة متسعة للمعيشة ، بها مطبخ صغير فى احد الأركان ثم حمام ، وكانت قد غيرت من نظام الشقة لكى تسع كل المدعوين المنتظر حضورهم وعلى أحد الأجناب رفعت المائدة الرئيسية وعليها أصناف الحلوى والمشروبات .. جلست مع " نادر " عدة دقائق وتبادلنا الحديث .

إلى أن دق الجرس وفتحت " ثناء " ليدخل " رضوان " وبرفقته فتاة إنجليزية مرحة . توالى حضور باقى المجموعة " سامى " وبرفقته " سيلفى " السويسرية وكنا قد علمنا أنها انتقلت

للمعيشة معه . ثم أحمد وزوجته الأسبانية ثم مجموعة كاملة من جارات " ثناء " تشكيلة من جنسيات مختلفة ..

وضعت تورتة عيد الميلاد على منضدة صغيرة وسط الحجرة وأشعلنا الشموع الصغيرة المغروسة فيها .. وعندما عددت الشموع وجدتها خمساً وعشرين شمعة .

همست فى أذنها مازحاً :

- هل هذا العدد مضبوط :

لمعت أسنانها البيضاء بين شفتيها المكتنزين وهى تقول :

- مضبوط والله ..

ضحكت وقلت :

- أنا أصدقك دائماً .

أطفأت فى لحظة واحدة خمسة وعشرين عاماً من عمرها .. وعندما أضأنا المصابيح راحت تتقبل التهنئة وكان " نادر " أول المهنئين بالطبع عندما انحنى قليلاً ليقبلها على خدها .. ثم ليعلن فى حركة استعراضية :

- اسمعوا يا جماعة لقد جهزت لكم مفاجأة .

كانت مفأجأته لنا هي قيامه بالعزف على آلة (أورج)كان قد اشتراها حديثاً. وبعد تناول الشاي والحلوى. افتتحت ثناء وخطيبها

الرقص وتماوج شـعرها القصـير وفسـتانها الجديـد الأنيـق المـرقط كجلد النمر. وازدادت جمالاً.

تعرفت على " نادر " فى هذه الليلة وتبادلنا الحـديث مـن حـين لآخر. وقد لفت نظرى تعاليه المتعمـد .كـان طـويلاً وسـخيفاً بعـض الشيء وشديد الأناقـة والعنايـة بملابسـه وحركاتـه وطريقـة نطقـه للكلمات . علمت منه أنه قد حضـر إلـى لنـدن ليـدرس الاقتصـاد ، ولكنه تحول لدراسة السينما – هذا بالإضافة إلى أنـه يمـارس هوايتـه فى العزف على الآلات الموسيقية ، فقد كان يعشـق الموسـيقى ويجيـد العزف على أكثر من آلة . وقال لـى أنـه يفكـر فـى تكـوين فرقـة موسيقية عندما يعود إلى مصر .

كانت الفتاة الفلبينيـة شـديدة الرقـة والأدب . أعطاهـا شـعرها الأسود الداكن الطويل مع فستانها الأبيض المنقط مسـحة مـن البـراءة المحببة .

كانت مفاجأة الحفل الثانية هى إعلان " ليلـى " المفـاجئ لنـا .. فقد أعلنت أنها قررت العودة إلى مصر لتلحـق بالدراسـة التـى بـدأت فى الجامعة منذ أكثر من شهر مضى . وعنـدما انـزعج سـامى لهـذا الخبر طمأنته مبتسمة وقالت له إنها قد دبـرت أمرهـا، فسـوف تتسـلم العمل بدلاً منها فتاة حضرت من مصـر حـديثاً ،لهـذا تحـول الجـزء الثانى من الحفل لوداع " ليلى " .

انصرفنا جميعاً فـى نهايـة السـهرة بعـد أن ودعنـا " ثنـاء " وخطيبها ثم ودعت ليلى وأعطيتها رقم تليفـون أسـرتى لتتصـل بهـم وتبلغهم سلامى .

أصر " سامى " على توصيلى إلــى المنــزل ، فقــد كــان معــه سيارته الخاصة .. ولكننى أعتــذرت أمـــا الفتــاة الفلبينيـــة فقــد كانــت تسكن بالقرب من منزل " ثناء " لهذا مضت إلــى منزلهـــا ســيراً علــى الأقدام بعد أن تبادلنا العناوين وعلى أمــل لقـــاء لــم يــتم رغــم أننــى فكرت فيها كثيراً بعد ذلك .

كان رضوان قد أخبرنى همســاً قبــل انصـــرافى بأنـــه ذاهــب ليقضى باقى الليلة مع الفتاة الإنجليزيـــة وأنـــه يــدعونى لقضـــاء الليلـــة معه لأن لصديقته صديقة أخرى تقــيم معهـــا ومـــن الممكـــن أن أذهــب معهم ، وتكون فرصة لإكمـــال الســـهرة .. اعتــذرت لـــه فقــد كنــت مرهقاً ومضيت إلى منزلى وحدى .

شعرت بالندم بمجرد دخولى حجرتى على أنـــى لــم أذهــب مـــع " رضوان " وصديقته ، فقــد كانـــت الحجــرة بـــاردة خاويـــة كئيبـــة . وأمضيت الليل وحدى أتقلب فى الفراش .

{٧}

انتقلت إلى سكن آخر فى منطقة " نوتنج هيل جيت " وكان الشارع الذى سكنت فيه متفرعاً من شارع " البيزووتر " وقريباً إلى حد ما من حدائق الهايد بارك . وكان الشارع يتميز - ككل شوارع لندن تقريباً - بأنه يشبه الوحدة المعمارية الواحدة ، فقد كانت المنازل كلها ذات تصميم واحد متكرر . وبنفس اللون الأبيض تقريباً .ذلك التصميم الإنجليزى الشائع ..السقوف المائلة المصنوعة من " القرميد " ، المداخن الفخارية المتلاصقة ، الأسوار الحديدية السوداء ، المداخل المميزة ذات الأعمدة المبنية السميكة والشرفات الصغيرة .

ساءت حالتى المادية وأصبح العثور على عمل حلماً يخفق فى خيالى ولا يتحقق رغم طول تجوالى . وبتخفيض نفقاتى قمت بتوزيع زياراتى على الأصدقاء والمعارف الذين يعملون بالمطاعم حيث كان من الممكن أن أتناول طعاماً مجانياً أو مخفضاً إلى أقصى حد ممكن بدعوة منهم. كان هناك جرسون أعرفه فى مطعم صغير بمنطقة " ساوث كنسنجتون " وطباخ صديق "على " يعرف حالتى فى منطقة " ماربل آرش " ما إن يرانى حتى يعد لى وجبة سريعة . وهناك فى منطقة " هلبورن " كان مساعد مدير لأحد المطاعم يدعونى على الشاى والحلوى من حين إلى آخر .

وأثناء عودتى إلى منزلى كنت أمر على قريبى " على " فى مقر عمله بحديقة الهايد بارك حيث أسأل عن أخبار العمل وأتحدث معه قليلاً عن الأمل والمستقبل ثم أعود سيراً على الأقدام إلى

حجرتى . وعندما كنت أزوره ذات مرة وأنا فى أشد حالات الإرهاق واليأس وبعد أن أمضيت معه بعض الوقت أعطانى شحنة من الأمل استأذنت منصرفاً، وما إن ابتعدت عدة خطوات حتى وجدته يلحق بى ويدس فى جيب معطفى لفافة صغيرة وهو ينظر فى وجهى . فضغط على يدى ثم ابتسم ابتسامة ذات معنى . ترددت قليلاً قبل أن أسأله . ولكنه ابتعد عنى ملوحاً . وعندما فتحت اللفافة وجدت بها نصف فرخة وكمية من البطاطس .

وقفت مكانى عدة لحظات لا أفكر فى شئ .. ثم سرت متجهاً إلى غرفتى دون كلمة .

أخبرتنى " ثناء " أثناء زيارة تالية لها بأن هناك مكاناً شاغراً فى المطعم وأننى أستطيع أن أعود للعمل وأن " سامى " لن يرفض إذا طلبت منه ذلك الا أننى رفضت الفكرة تماماً.

وبعد يومين كنت أقرأ إعلاناً فى إحدى الصحف المسائية . أن أحد المطاعم بمنطقة " سوهو" يطلب مساعد طباخ .. اتصلت تليفونياً بالمطعم وحددت موعداً مع المدير .. ذهبت والتقيت بمساعد المدير وقدمت له نفسى .. وأخبرته كذباً بأن معى تصريحاً بالعمل .. وأن معى كارت التأمينات الاجتماعية وأعطيته أرقاماً وهمية .. فقد كانت المشكلة الكبرى فى كل عمل من الأعمال هو تصريح العمل وكارت التأمينات الاجتماعية.

واستلمت العمل فى اليوم التالى...

كان المطعم للمصادفة الغريبة مطعماً ايطاليا أيضاً.. يقدم كل المأكولات الإيطالية اعتباراً من المكرونة الإسباجيتى إلى البيتزا بالإضافة إلى أنواع الأطعمة الأوربية المختلفة . أخبرنى المدير فى اليوم الأول بأننى سأعمل خمس ساعات فقط . معنى ذلك أننى سأعمل نصف الوقت وسأتقاضى نصف مرتب ورغم ذلك وافقت دون تردد ودخلت المطبخ من فورى.

كان المطبخ كبيراً .. وجدرانه مبلطة بالقيشانى .. وعلى الجدران أدوات المطبخ من سكاكين وكبش وطاسات ، وعلى الأرفف وضعت الحلل الضخمة والطاسات ومعلبات الأطعمة المحفوظة والصلصة .. وفى الأركان كانت الأفران موقدة وعليها أوانى الطبخ والقلى والطباخون منهمكون فى العمل.

لم تمض عدة دقائق على دخولى المطبخ حتى غرقت مرة أخرى فى البصل وقطع اللحم والخضار وأوانى الطبخ الكبيرة ورائحة طبخ الطعام .

كان المطعم يعمل ليلاً حتى ساعة متأخرة من الليل لأنه يقع فى منطقة " سوهو " الشهيرة القريبة من ميدان البكاديللى . كنت أبدأ فى العاشرة صباحاً وأنتهى من العمل حوالى الثالثة مساء . وكانت الساعات الخمس تمر بسرعة وأنا أعمل دون تفكير ثم بدأت المضايقات وأصبحت الساعات الخمس ثقيلة كالأحجار . لقد شعرت بالتدريج أن عملى يحتاج لأكثر من فرد أو على الأقل لعدد ساعات أكثر . بدأت أشعر بالاستغلال وأنا أعمل دون توقف وبدأت أكتشف

أيضاً أشياء كثيـرة .. فقـد اكتشـفت أن الطبـاخ ومسـاعده يغشـون بعض أصناف الطعام . ويقللون من بعض الكميات المقررة .

أرغمت نفسى على السكوت .. ولم أكـن أفكـر طيلـة الخمـس الساعات إلا فـى الخـس والطمـاطم والكرنـب والجـزر والبطـاطس وتقطيع اللحم وسلق المكرونة .

كان معظم العاملين معي من الأسبان .. وشـاب مغربـى واحـد وآخر من وسط أفريقيا ،أما المدير الذى لفت نظرى إليـه فقـد كـان ذا شعر لامع طويل يغطى كل رأسـه ووجـه أحمـر سـمين . ونظـرات ثابتة كنظرت اللصوص ..

لهذا كنت أقضى ساعات العمـل دون كلمـة واحـدة ثـم أغيـر ملابسى وأخرج لأسير فى شوارع حى " سوهو " أنظـر إلـى وجهـات المحلات والمطاعم والسياح من كل أنحاء العالم .

وخلال كل هذا ظهرت بادرة لطيفـة خففـت عنـى المضـايقات والوقت الممل الثقيل على نفسى الذى أقضيه بـين الحلـل التـى تغلـى والدموع التى أسفحها وأنا أقشر أكوام البصل .

كانت جميلة حقاً ، مبتسمة أحيانـا ، ورقيقـة دائمـاً .. وكانـت فوق ذلك جذابة بلا حـدود .. ذات شـعر يتـداخل فيـه اللـون البنـى باللون السود تداخلا طبيعياً رائعاً وليتوج فـى النهايـة جسـداً مرمريـاً ممشوقاً وفخوراً بجماله الآسر .

وعندما كان شعرها ينحدر على الأكتاف يكون قـد أكمـل هالـة تحيط بوجه رائع العينين دقيق الأنف قرمزى الشفتين .

كانت تقدم المشروبات للزبائن فى مداخل المطعم ، ومن مكانها تستطيع أن ترانى جيداً وأنا منهمك فى العمل من خلال الباب المؤدى إلى المطبخ وعندما كانت عيوننا تتلاقى كنت ألمح شبح ابتسامة مشفقة تصل إلى فتكون كالبلسم .

تأملت وجها طويلاً أثناء خروجى .. وطلبت منها زجاجة كوكا كولا قدمت لى الزجاجة مع ابتسامة حلوة مشجعة . تحدثت معها وعرفت أنها إيطالية أيضاً من مدينة نابلى . كان اسمها الغريب اسم نوع من الزهور البرية ينمو على سفوح الجبال .. هكذا اخبرتنى .

وعندما عدت إلى منزلى مخترقاً ظلام مدينة نابض بالأضواء كانت صورتها فى خيالى شراعاً لقارب تائه بين أمواج الليل والوحدة .

كان من واجبى أن أبدأ الخطوة الأولى .. فعندما كنت منهمكاً فى تخريط كمية هائلة من البصل ، والدموع تنساب من عينى اكتشفت أنها قد دخلت متلصصة ثم راحت تضحك على منظرى البائس .. ضحكت أنا الآخر على نفسى .. ثم خرجت وعادت ومعها كأس من عصير البرتقال شربته في جرعة واحدة. ثم ضحكنا .

كانت مشاعرى ورغباتى كاسدة كبضاعة على رصيف ميناء هاجمته الأعاصير وأغرقت سفنه فى عرض البحر قبل أن تصل .. أما عمال الشحن والتفريغ فقد أضربوا عن العمل وظلت

مشاعرى أكداساً فوق بعضها تعبث بها الفئران ويطيح بها الهواء كيفما شاء .

تحدثت معها عند خروجى وسألتها عن ميعاد انتهائها من العمل فقالت لى إنه فى الحادية عشرة مساء ترددت للحظة قبل أن اسألها .سألتها أن تقبل دعوتى لتناول مشروباً سوياً بالخارج .. ابتسمت ابتسامة لا أنساها .. ازدادت ضربات قلبى فجأة وندمت على تسرعى .. انتظرت ردها وأنا فى قلق بالغ .

قالت ببساطة مشرقة إنها ترحب بذلك ولكنها تفضل أن يكون ذلك يوم عطلتها لأنها تعمل فى عمل آخر لمدة ثلاث ساعات يومياً في الصباح .

نبضت الفرحة فى قلبى كطائر أصيب بالجنون فجأة وراح يهرب إلى سماء صحو رائعة .. وأصبحت البطلة المطلقة لأحلام اليقظة لمدة ثلاثة أيام .. حيث كنت أستمد من نصائح " على " الشجاعة وأتصور ما سوف يحدث .

عندما حل موعد لقائى بها كنت قد فصلت من العمل هذه المرة بعد مشاجرة مع أحد العاملين بالمطعم .

فقد عدت إلى غرفة غيار الملابس بعد انتهاء العمل لأبدل ملابسى كالعادة ولكننى اكتشفت فقد ساعتى التى تركتها دقائق لأغتسل . وعندما سألت الشخص الوحيد الذى دخل الغرفة فى هذا الوقت أنكر تماماً . وكان مساعد جرسون إيطاليا أيضاً قصيراً ونحيفاً وعصبى المزاج .

سمع مدير المطعم صوت شجارنا ومناقشاتنا فصعد إلى الغرفة ودون أن يسمع التفاصيل مني أمرني بالانصراف وعدم العودة إلى العمل مرة أخرى.

لم يكن هناك أى تفسير لطردى إلا تفسير واحد وهو أنه قد علم بأننى لا أملك تصريحاً بالعمل وأن الشاب الطليانى قد غدر بى حقاً .. وأصبح من المستحيل أن أبلغ الشرطة بواقعة السرقة لأن موقفى غير قانونى .

{٨}

أما بطلة أحلامي فقد دعتنى لزيارتها بحجرتهـا التـى اكتشـفت أنها تقع فى منطقة قريبة من المنطقة التـى أسـكن بهـا . فتحـت لـى باب مسكنها . وكانت تقطن حجرة أنيقة متسـعة . كـان الوقـت لـيلاً.. وبدت رائعة تدافعت أمواج الضـوء لتـرتطم بوجههـا الجميـل تـألق جمالها فى قلبى كتألق قطعة من الماس .

أدارت جهـاز التسـجيل علـى موسـيقى إيطاليـة . ورفرفـت حولى ملابسها الفضفاضة وابتسامتها وهـى تعـد لـى الشـاى وقطعـا من الكيك فى طبق أبيض صغير .

تناولت معها الشاى ونحن نسـتمع إلـى الموسـيقى الإيطاليـة ، كان يتوسط الحجرة تليفزيون ملون رحنـا نتابعـه مـن حـين لآخـر . واضطررنا لتخفيض صوت التليفزيـون لإتاحـة الفرصـة للموسـيقى ، وكان هذا طلبى .

توالت فقرات نشرة الأخبار بالصورة فقـط والموسـيقى تطغـى وكأنها تسخر منهـا .توالـت أخبـار الأحـداث والثـورات ، وطـائرة مخطوفة يتابعها العالم كله .

ومنظمة إرهابية ألمانيـة تـدلى بيانـاً .. وحريـق مـدمر فـى مكان ما .. وموت شخصية كبيرة بعد سـقوطها مـن علـى الحصـان فى الريف البريطانى .

أخبرتها بأنى قد طردت من العمل ، كـان ردهـا غيـر متوقـع. لقد هنأتنى ولم تسألنى عن السبب . قالت لى إنهـا كانـت تشـفق علـى

لأن العمل الذى كنت أقوم بهـا فـى خمـس سـاعات كـان بقـوم بـه شخص آخر يعمل لمـدة عشـر سـاعات يوميـاً. بمعنـى أنـه كـان يتقاضى ضعف مرتبي وقصت على أيضاً معاناتهـا فـى العمـل وأنهـا غير سعيدة . حدثتنى عن إيطاليا. وعن حياتها وعـن أسـرتها . قالـت لى إنها تتمنى أن تزور مصر فهى تحلـم بـذلك وأنهـا تـدخر بعـض النقود ستنفقها فى رحلة حول العالم . قالـت لـى إنهـا أحبـت مصـر دون أن تزورها لأن أباها عاش فـى مصـر فـى شـبابه ، ولا يـزال يقص لهم عن حياته بالقـاهرة والإسـكندرية . قلـت لهـا ضـاحكاً إن مصر كلها سوف تكون سعيدة بزيارة أجمـل وأرق فتـاة فـى العـالم . وسوف أؤلف لها الهتافات وأخبرتها بأنى أملـك خبـرة كبيـرة سـابقة فى تعليق اللافتات وحشد النـاس للهتـاف والتصـفيق فـى المناسـبات عندما كانوا يخرجوننـا قسـراً مـن المـدراس والجامعـات لاسـتقبال الزعماء .

ضحكت من قلبهـا وظهـرت أسـنانها صـغيرة بيضـاء بـين شفتين ساحرتين قالت وهى تلقى برأسها للوراء :

- لا تكن مبالغاً .. فأنا أعلم أن أهل الشرق يحبـون المبالغـة فـى عواطفهم .. قلت لها بعد أن شردت لحظة :

- هذا شعورى الحقيقى .

نظرت نحوى وكأنها لا تصدقنى .. قالت بصوت موسيقى النبرات:

- أحقاً ما تقول ؟

نظرت إليها طويلاً وقلت :

- حقا ما أقول ...

اندهشت لأن ذلك أسعدها وكأنها تسمع ذلك لأول مرة .. أمسكت يدها الناعمة البيضاء وضغطت عليها . كنت في حاجة لأن تشتعل لحظاتي وأيامي .. إما أن تدفئني أو أن تحرقني بنارها الوهاج .. كانت تزداد إشراقاً على أرض باردة مبتلة بالمطر . وبالتالي مرهقة بعذاب الوحدة .. كان وجهها يشع ضوءاً قمرياً خافتاً . غرست أصابعي في خيوط شعرها التي كانت تهطل هطولاً رائعاً مستمراً على كتفيها. هطولا غزيراً كأمطار شتاء قاس لا يرحم .

تخبطت لحظاتي بين البقاء إلى الأبد أو الرحيل إلى آخر مدى معها بقلب يخفق .. وعقل نشوان بلحظة الجمال كالضوء ذاته.

لم تكن الرغبة هي ما تشد وثاقنا .. ولكن كانت إرادة النجاة من أعماق حياة باردة .. ضغطت على يدها فازدادت دفئاً .. ابتسمت .. تطاير رذاذ الضوء الدافئ حولنا .. شعرت بالتردد والحيرة .. ودقات قلبي تزداد لقد حانت اللحظة أخيراً .سمعت صوت أبي من بعيد وهو يتنحنح .. حلقت في سماء حينا الشعبي بالقاهرة . الأزقة والحواري ، والقباب ، والمنازل القديمة .. انكمشت داخل نفسي .. مرت بي سحابة هائلة من الحزن .. تعلقت بنظراتها المتسائلة .. تنفست بصعوبة .. انتفض العذاب وترأ مشدوداً وأبي يطل بطاقيته وجلبابه الأبيض ومسبحته الفسفورية التي تشع في الظلام ضوءاً خافتاً .. وبركة وسلاماً .أنت محظوظ

يا أبى بتقواك وبتلك النشوة الروحيـــة .. ملامحـــك مســتريحة لا حيـــرة فيها . أما أنا فأتخبط فى الســفح . أنـــت هنـــاك تحلـــق عاليـــاً . بينـــى وبينك أنهار من المشاعر المتدفقـــة . أنـــت هنـــاك بعيـــد . فـــلا أنـــت تقترب منى لتأخذنى معك ولا أنا قادر على الوصول إليك .

وقفت بجوار نافذة حجرتهـــا فجـــأة .. أزحـــت الســـتار ، كـــان الليل دامساً وعميقاً بالخـــارج كبحـــر لا قـــرار لـــه .. وعلـــى زجـــاج النافذة تكونت دائرتان غير محددتين مـــن بخـــار المـــاء المتكثـــف مـــن أنفاسى، مسحتهما بيدى برفق . كانت قطـــرات المطـــر الرقيقـــة تســـح على ســـطوح المنـــازل الداكنـــة وأعمـــدة الإضـــاءة الشـــاحبة وأفنيـــة المنازل .

تكونت فى صـــدرى زفـــرة حـــارة . افترشـــت مســـاحة كبيـــرة على الزجاج ، كان البقاء عـــذاباً ، والعـــودة إلـــى الماضـــى هزيمـــة .. والتقدم مستحيلاً وأنا أغرق في ليل عميق لا أعرف له مدى .

تعلمت بلا إرادة .. دخلت الكلية التـــى لا أرغبهـــا ورغـــم ذلـــك درست وتخرجت .. عملت بـــلا رغبـــة فـــى نـــوع العمـــل .. صـــفقت سنوات طويلة لرجـــال لا أحـــبهم .. أيـــن إذن الفضـــيلة الوحيـــدة فـــى حياتى ؟

لماذا إذن أشعر بذلك وحدى ؟

التفت إليهـــا فوجـــدت عينيهـــا ممتلئتـــين بالســـؤال وانعكاســـات الضوء علي وجهها . اقتربت منها برفق وأنا احترق كعود ثقاب .

رددت فى ذهنى نصيحة " علـى " هـا هـى قـد دعتنـى إلـى منزلها ماذا أفعل ؟

نظرت إلى السقف مع حركة من وجهها وكأنها تتـابع شـيئاً ما يطير فوقها ازدادت فى هـذه اللحظـة جمـالاً علـى جمـال وهـى ساهمة .. شاردة .. كأنها تمثال جميـل مـن تماثيـل عصـر النهضـة الأوربية .

عدت إلى عينيها مرتجفاً .. كان الطريق ممتـداً أمـامى . لابـد إذن أن أصل إلى القـاع .. أو إلـى القمـة .. كنـت أجتـاز المنـازل الخربة ، والجدران والسقوف المتهاوية المحترقة لأصـل إلـى الفضـاء الرحب فى الظلام .

أمسكت يديها لحظات . ارتجفت عيناها . تجمدت مكانى.

سمعت صوت الأذان وكأنـه يصـل إلـيّ مـن مسـجد السـيدة زينب بالقاهرة. سرت في جسدي رجفه.

شعرت بصداع لا أعرف لـه سـبباً . وجلسـت علـى المقعـد ورحت أتأمل سقف الحجـرة .. تأملـت مشـاعرى وجـذورها الممتـدة فى نفسى تحت رذاذ المطر، والليل البارد ..

كانـت راقـدة فـى الفـراش مسـترخية ، ناعمـة ، بيضـاء ، كالذكرى الحلوة وعندما نظرت إليها مرة أخرى وجـدتها قـد نامـت .. نظرت خلال الزجاج إلى المدينـة المنكمشـة علـى نفسـها والسـحب تغطى الأفق كأغطية ثقيلة فـى ليلـة بـاردة .. شـعرت بـالجوع مـن عنف الصـراع الـذى دار داخلـى .. فأكلـت قطعـة حلـوى.. كنـت

عاجزاً عجزا رهيباً .. لا أتقدم ولا أتـأخر .. لا أهـبط إلـى القـاع ولا أرتفع فوق مشاعرى.

ظللت مكانى لا أفكر فى شيء وعنـدما لمحـت الفجـر يتمـرد على الليل ظننته فى البداية مجرد وهم .. ولكنـه كـان حقيقـة بزغـت بعد طول انتظار. راح الضـوء الشـفاف يطـوى الليـل طيـاً .. وأنـا مشتت الذهن .. فـارغ مـن المعنـى .. ارتـديت ملابسـى وأغلقـت أزرار معطفى وخرجت بهدوء .. دون أن تشعر بى .

اشتعل وجداني بمجـرد خروجـى وتعرضـي للهـواء .. مثـل قطعة فحم راقدة فى مـدفأة .. كـان كيـانى كلـه فـى حالـة صـدام واشتعال .

{٩}

كانت لندن الإنسان والميناء غصن شـجرة متأرجحـاً فـى أفـق ليل عاصف.

خرجت من منزلى فى الصباح .. وفضلت السـير مـن منطقـة " نوتنج هيل جيت " متخذاً طريـق " البيـز ووتـر " .. تناولـت أثنـاء سيرى قهوة فرنسية مع قطعة كيـك وتابعـت سـيرى وحيـداً .. كنـت أريد أن أبحث عن معنى جديد فى الأشياء شـيء يضـاف إلـى نفسـى من حوار صامت لا يزال يدور بينى وبـين المكـان يشـدنى إليـه ثـم يتركنى فأبتعد وأهيم .. أتأرجح ثم أعود .. فقـد أمضـيت أسـبوعاً فـى غاية السوء .. ففى بدايته أصبت بالبرد الشديد ، وفـى نهايتـه أصـبت بالحزن .

كنت قد أصبت بالبرد من طـوال تجـوالى فـى الشـوارع عـن عمل واضطررت للرقاد فى الفراش ولم أكـن قـد اكتشـفت مـن قبـل مدى كآبة الحجرة التى أقطنها إلا عندما رقدت فيها ليل نهار .

فقد كانت بالدور العلـوى لمنـزل إنجليـزى عتيـق .. وطـوال الليل كنت أسمع صوت الرياح وهى تـرتطم بالمدخنـة أعلـى المنـزل فيحدث ذلك صفيراً هائماً خافتاً يصـل مـن خـلال المدفئـة والنيـران متوهجة فيها .. كان صـوت قطـرات المطـر علـى السـقف المائـل المصـنوع مـن القرميـد يشـبه صـوت " نقـرات " الطيـور عنـدما تتصارع لتأكـل وتلـتقط " الحـب " وعنـدما يمتـزج صـفير الريـاح وصوت المطر على السقف والزجاج كنت أشـعر شـعوراً لا حـد لـه بالكآبة والوحشة يصل إلى حد الرغبـة فـى البكـاء .. كانـت حـالتى

المادية فى تدهور " رائع " مستمر . وظللت أفكر طوال رقادى فى جدوى الحياة التى أحياها .

قررت ذات ليلة ضرورة العودة إلى مصر ، ولكننى تراجعت عن أفكارى فى الصباح وتحت ضغط حنينى إلى أهلى كتبت لهم خطاباً .. أخبرتهم فيه بأننى فى أحسن حال وأستمتع بالحياة فى لندن ، والنقود معى تكفى لشراء منزل كامل وأن حسناوات لندن يعلقن صورى فى غرفات نومهن .

كنت أشعر لساعات طويلة وأنا فى قاع الليل .. وشعاع ضوء خافت يتسلسل من الشارع إلى سقف الحجرة بأننى فى قبر .

وعندما استعدت نشاطى فى نهاية الأسبوع كان أول شيء فعلته هو الذهاب إلى صديقتى الإيطالية .. فقد اشتقت إليها .. انتظرت خارج المطعم فى الوقت الذى تخرج فيه عادة وقفت على الرصيف المقابل بحيث لا يرانى أحد من العاملين بالمطعم .. مرت الدقائق بطيئة إلى أن خرجت كالمعتاد .

انشرح قلبى وهممت بعبور الشارع لملاقاتها ، وما إن خطوت الخطوة الأولى حتى جمدت مكانى. فقد خرج شاب إيطالى من المطعم ولحق بها ، بدا لى أنها كانت تتوقع حضوره ، فقد ابتسمت عندما تأبط ذراعها . طوحت رأسها إلى الوراء وحلق شعرها لحظات متناثراً حول وجهها الساحر . سارا سوياً وهما يضحكان . تابعتهما بنظراتى وأنا مكانى لا أتحرك .

ازداد وعيي بكل شـــيء حـــولى .. انغـــرس فـــى قلبـــى حـــزن مفاجئ .. وعندما غابت عـــن عينـــى كنـــت قـــد وقفـــت علـــى حافـــة سؤال.. ليس من المهم أن يكون له جواب .كان ثابتـــاً مكانـــه مثلـــي. لا إجابة..

لم أشـــعر أبـــداً بـــالغيرة ، ولكـــن مشـــاعرى كانـــت متشـــابكة متضاربة .. لم يوقظنى سوى " نفير " سيارة ،فقد ردنـــى إلـــى الخلـــف من اللاوعى الكامل .. إلى نصف وعى .

ابتسمت ، وسرت عائداً إلـــى منزلـــى وصـــدرى ضـــيق .. لـــم أكن قد وقعت فى حبها ولكن كـــان شـــعورى يصـــعب وصـــفه " نبتـــة خضراء ينحسر عنها الماء وهى فى أشد الشـــوق إليـــه " . كنـــت أريـــد شيئاً ينعش فى نفسى الرغبة فى الحيـــاة ،وهـــا هـــي قـــد ذهبـــت كمـــا ذهبت أيامي. وأحلامي الماضية.

عدت إلى منزلى صامتاً .. ضـــائعاً تمامـــاً ونصـــف حـــزين .. مبتسم الوجه وفى ذات الوقت قلبى يقطر مرارة .

{١٠}

لماذا إذن حضرت إلى لندن ؟

هل لأسير فى الشوارع تحت المطر .. وأعمل كغاسل أطباق .. وأظل مهدداً بالطرد فى أية لحظة ؟

الذى أستطيع أن أقوله .. هو أن السفر كان فى حياتى هو البديل الوحيد للموت .. نعم الموت . فالموت حياً .. أسوأ من الموت راقداً ساكناً.

لقد اكتشفت ذات يوم أن الأيام لا تضيف إلى حياتى شيئاً .. واكتشفت أيضاً ما هو أسوأ .. أنى عاجز عن إضافة أى شيء لنفسي.. كانت حوارى وأزقة وتراب حى السيدة زينب هى عشقى.. وحقل أحلامى كلها .

ورغم أننى تعلمت أن أدعو فى كل صلاة .. وأن أذهب إلى ضريح مسجد السيدة زينب فى الأزمات وأدعو الله أن يحقق لي ما أريد.. ولأن ما كنت أطلبه لا يزيد عن النجاح فى الامتحان .. لهذا وجدت نفسى بعد تخرجى لا أعرف ماذا أريد ؟

ماذا يفعل الإنسان عندما يجد كل الطرق أمامه مسدودة .. أو تؤدى إلى نتيجة واحدة .. لا شيء ؟

كنت قد انهيت دراستى بكلية التجارة وجندت إجبارياً فى الجيش .. وأمضيت عدة سنوات فى وحدة مدفعية بجبهة قناة السويس . وعندما أنهيت فترة تجنيدى وانتهت الحرب اعتقدت أن

كل أبواب الحياة قد فتحت .. وأن أحلامى التى عشتها فى الخنادق وتحت قصف المدفعية سوف تزهر وتتحقق . لا أعرف كيف بدأ شعورى نحو الحياة يتغير ؟ أو شعور الحياة يتغير نحوى؟

هل لأنى عينت فى إحدى الهيئات الحكومية وأمضيت حوالى عام كامل أذهب إلى العمل ولا أفعل شيئاً سوى شرب الشاى وتصفح الجرائد؟

لقد أصبح ذهابى إلى العمل عملية تعذيب يومية .. حاولت الخروج منها باستكمال دراستى والتقدم لنيل الماجستير ثم الدكتوراه.. وبعد أن أعددت نفسى للدراسة وسجلت اسمى ووضعت برنامجاً للعمل . وجدت نفسى أتوقف دون سبب .

فكرت فى الزواج لكى أجدد حياتى .. وأخرج من هذه الحالة .

ولكننى اكتشفت أننى فى مأزق كبير عندما قمت بعملية حسابية صغيرة فاكتشفت أن الزواج عملية أكبر مما كنت أتخيل .. كان يحتاج ببساطة إلى عدة آلاف من الجنيهات فى حين أن مرتبى لا يكاد يكفينى حتى نهاية الشهر .

أوهمت نفسى بأن هناك أملاً ما . وعشت على هذا الأمل الغامض أفكر وأنتظر دون جدوى والأيام تتطاير حولى وتهيم كالغبار .. أما عن أسرتى . أمى امرأة ريفية متدينة تجاوزت أعوامها الستين بقليل .. تزوجها أبى وهى لم تتجاوز الرابعة عشرة.. وكان هو فى العشرين من عمره موظفاً جديداً بالحكومة

فى وقت كان لموظف الحكومة فيه هيبة وجلال تعطيانه الحق فى مصاهرة أكبر العائلات ، وكان مرتبه حينئذ لا يتجاوز الجنيهات القليلة .

عشنا فى منزلنا بالسيدة زينب .. ولا يكاد يخلو منزلنا من أقاربنا القادمين من الريف لزيارة ضريح السيدة زينب . أما فى المولد السنوى للسيدة . فكان من الطبيعى أن أقيم بصفة مستمرة عند أحد أصدقاء .. كان منزلنا ببساطة يتحول إلى شبه فندق شعبى.. وتظل أمى تطبخ طوال اليوم لإطعام عائلات بأكملها هبطت علينا لحضور المولد والتبرك بالسيدة زينب .

أمى لا تكاد تفارق سجادة الصلاة .. ولا تتخذ قراراً كبيراً أو صغيراً إلا بعد زيارة الضريح للتبرك والدعاء .

كان نصيبى من حنانها أكبر من نصيب إخوتى فأنا كنت أصغر أبنائها وبناتها ، فقد كان لى أخ واحد يكبرنى بعشرة أعوام كاملة .. ثم ثلاث بنات تزوجن جميعاً .

كان أخى الأكبر متزوجاً ويعيش مع زوجته وأولاده فى حى أرقى من حينا الشعبى ،فقد نجح فى عالم التجارة بعد أن فشل فى عالم الدراسة . وفى طريقه لأن يكون ثرياً بمعنى الكلمة .. لم يتنبأ له أحد بهذا المستقبل المالى الكبير خاصة وأنه ظل عاطلاً عدة سنوات بعد فشله الدراسى المتكرر .

كان أخى الأكبر هو المسيطر الفعلى على الأسرة لمساعداته المالية التى لا تنكر .. فلولاه ما تزوجت شقيقاتى الثلاث . لقد أنفق

على تجهيزهن الكثير ، واشترى لهن الأثاث من أكبر محلات الموبيليا . وأقام لكل منهن حفلاً كان حديث الحى كله .

ورغم مساعداته المالية لى أحياناً .. ورغم هذا ظل بالنسبة لى غبياً لا يفهمنى ولن أنسى بعض إساءاته لى .. بل ولن أنسى إرغامه إحدى شقيقاتى على الزواج من رجل لا تكرهه .. ولكنها لا تحبه .. فقط لأنه صديقه ويسهران سوياً .

أما أبى فأمره عجيب حقاً ..

فقد فوجئت بانسحابه من الحياة العادية لدى خروجه على المعاش .. فبعد أن كان الأستاذ " عبد العليم " الموظف بهيئة السكة الحديد .. أصبح الشيخ " عبد العليم " وبعد أن كان جلوسه المفضل فى مقهى شعبى يطل على ميدان السيدة زينب .. أصبح مكانه المفضل الدائم ساحة مسجد السيدة زينب وبجوار الضريح .

لقد خلع " البدلة " وارتدى الجلباب الأبيض والطاقية البيضاء وحبات المسبحة الفوسفورية تقفز بين أصابعه .. وبعد أن كان يشاركنا فى كل صغيرة وكبيرة .. ابتعد عنا وأصبح يطل علينا من علياء روحى .. وكأنه يحتقرنا ولكن بأدب شديد .

أصبح منزلنا ملتقى الأصدقاء والجيران .. فقد كان يفسر الأحلام ويسدى النصائح وكان بالإضافة إلى ذلك يرى أحلاماً لا تخيب وتتحقق دائماً ..

وعندما كان يهم بمصافحة أحد كان يسحب يده بسرعة ، وبهذه الحركة يوحى للطرف الآخر بأنه لا يحب تقبيل اليد .. وهذا

معناه بالتالى أن يده مبروكة وأنها من الممكـن أن تقبـل ، لهـذا يكـون رد الفعل الطبيعى والمتوقع هو إصرار الطرف الآخـر علـى أن يقبـل اليد قبل أن تفوت الفرصة .. وأن يكون قد ارتكـب خطـأ يحرمـه مـن البركة .. يستسلم أبى ويسلم يده وهو يتمتم راضياً " أستغفر الله " .

لقد وجدت نفسى غريباً بينهم .. وأصـبح السـفر والإيغـال فـى الغربة هو الطريق الوحيد .

خرجت من منزلى فـى الصـباح .. وأخـذت طريقـى متجهـاً إلى " ماربل أرش " سيراً على الأقدام ، كانت السـحب تمضـى فـوقى متثاقلة ، مسالمة ، مفكرة فى عمق رغم البرودة الشديدة.

ولأن اليوم كان يوم الأحـد لهـذا كـان مجـرد السـير بجـوار حديقة " الهايد بارك " هو رحلة إلى النـاس .. إلـى وجـوههم .. إلـى قواربهم .. إلى أحلامهم ومشاعرهم .. إلـى قصـص حـبهم وحـزنهم وذلك فى لوحات جميلة ذات خلفيات عميقة الضـباب . زاهيـة الحـزن وداكنة الفرحة .

كان الرصيف مزدحمـاً بالسـائحين والفنـانين الـذين حضـروا إلى لنـدن بعربـاتهم ليعرضـوا لوحـاتهم علـى سـور الحديقـة فـى مهرجان أسبوعى إنسانى دافئ رغـم النسـمات البـاردة التـى راحـت تلسع الوجوه بين الحين والحين .

دسست يدى فى جيـوب معطفـى وسـرت صـامتاً ، حالمـاً .. فى حين اختفـت أعمـدة السـور الحديديـة خلـف اللوحـات المعلقـة

والمصنوعات الجلديـــة، والتماثيـــل الصـــغيرة والميـــداليات والسلاســـل والخواتم والمشغولات اليدوية .

شققت طريقى وسط مساحات الألـــوان .. ومـــن آن لآخـــر كـــان يستوقفنى نبض من الخطوط أو نغم هادئ مـَـن الألـــوان .. كـــأن هنـــاك سفناً تستعد للرحيل فى ضباب غروب جـــاثم فـــوق البحـــر الممتـــد بـــلا نهاية فى هدوء وخشوع . وفـــى قـــاع قـــارب مـــذعور انكمـــش ثلاثـــة صيادين وهم ينظرون إلى موجة عاتيـــة قادمـــة كـــوحش هائـــل يهـــتم بالتهام قاربهم .وفى لوحات أخـــرى رحلـــت قـــوارب صـــغيرة رقيقـــة كالدموع إلى أفق وردى وسحب ممزقة متنـــاثرة . وامتـــد فـــوق الميـــاه جسر خشبى داكن اللـــون ملقيـــاً بســـؤاله خلـــف القـــوارب .. " متـــى ستعودون " ؟

أكمـــل حيويـــة المشـــهد ودفئـــه عربـــات بـــائعى الفاكهـــة ، والمرطبات وأبو فـــروة والجيلاتـــى فـــى حـــين أن أغصـــان حديقـــة " الهايد بارك " امتدت فوق الـــرءوس ونشـــرت تحـــت الأقـــدام أوراقهـــا الصفراء الرقيقة . وعندما وصلت إلى ركن المتحـــدثين بحديقـــة الهايـــد بارك كانت أوراق الأشجار ترتعش تحـــت وطـــأة ريـــح بـــاردة هبـــت فجأة . كان الخطباء يقفون على منصاتهم الخشـــبية وســـط دوائـــر غيـــر متساوية من الناس.ووسط الزحام والضوضاء وســـار رجـــال الشـــرطة مسددين نظـــراتهم الصـــارمة فـــى أدب .. مشـــبكين أصـــابعهم خلـــف ظهورهم .

صـــرح متحدث يقف أعلى منصـــة مطالبـــاً بـــالحرب فـــوراً فـــى جميع أنحاء العالم بين الفقراء والأغنياء ، ووسط دائـــرة كثيفـــة أخـــرى

من الرعوس وقف شاب نحيف يقنع الناس بقيمة الحب والتسامح . ومن حين لآخر كانت أسراب الحمام تخفق بأجنحتها في تهويمة دائرية فوق الرعوس ثم تهبط لتلتقط الحب من على الأرض غير مبالية بالناس .. تصاعد الضحك رجراجا متصلا من دائرة متسعة. ومن خلال غابة الرعوس رأيت رجلاً إنجليزياً يضع " كاسكيت " أزرق على رأسه ويتحرك وسط الدائرة .

كان يتكلم كلمات بلا معنى وجملاً غير مترابطة .. ومع كل كلمة كان يأتى بحركة تشبه حركات اليوجا فيثير عاصفة من الضحك . سأله أحد الشبان الواقفين حوله :

- ما مذهبك السياسى إذن ؟

كانت إجابته موجزة وواضحة .. فقد خطا خطوة إلى الأمام ثم رفع يده إلى أعلى وتركها معلقة فى الفراغ .. ورسم بوجهه حركة أضحكت الجميع .

التفت إلى الشاب وقال بهدوء :

- هذا هو مذهبى السياسى .

سألته فتاة جميلة تحمل جروا صغيراً أبيض اللون :

- هل أنت متزوج ؟

رفع الرجل رأسه إلى السماء ثم انحنى طويلاً ثم اعتدل وأتى بحركة غير مفهومة من رأسه أثارت مزيداً من الضحك .. وقال :

– هذه إجابتى على السؤال ..

لم يذهب شعورى بالوحـــدة رغـــم ذلـــك .. فقـــد كنـــت فارغـــاً ككومة مـــن الأوراق يـــدفعها الهـــواء .. ســـرت متجهـــاً إلـــى ميـــدان الطرف الأغر . متخذاً طريق قصر بكنجهام الملكى .

وقفت أتفرج على السائحين والقـــبلات المتبادلـــة فـــى الأركـــان والحمام يحلق فى أسراب مبتهجاً بالزحام. طلـــب منـــى أحـــد الســـائحين دون سابق معرفة أن التقط لـــه بعـــض الصـــور . أعطـــاني الكـــاميرا ورحت ألتقط له الصور متخـــذاً خلفيـــات مختلفـــة : الأســـود الســـوداء الرابضة .. القائـــد الإنجليـــزى " نلســـن " وهـــو يقـــف علـــى العمـــود الشهير في واجهة الناشيونال جاليرى .. ثم عدة صـــور لهمـــا يطعمـــان الحمام الذى وقف فوق أكتافهما .

دخلت متحف الناشـــيونال جـــاليرى .. ورحلـــت مـــع اللوحـــات الكلاسكية إلـــى عصـــر النهضـــة مـــع الألـــوان والمشـــاعر الجياشـــة والخطوط الصارمة والصلوات الخاشعة تحـــت ســـماوات بكـــر كســـماء الأحلام وفنانين عانوا كثيراً كما أعـــانى أنـــا دون فـــن . ودون لوحـــات يشاهدها الناس وتخلدنى .

تعرفت أثناء تجوالى بالمتحف بشـــاب مصـــرى يرافـــق زوجتـــه ويقضيان شهر العسل فى لندن .. عرفنى بنفســـه .. فقـــد كـــان يعمـــل بإحدى الدول العربية البترولية .. كانا سعيدين وعنـــدما خرجنـــا ســـوياً من المتحف كان النهار قـــد رحـــل عنـــا وامـــتلأت الطرقـــات بالنـــاس والسيارات والأضواء .

دخلنا دكاناً لشرب القهوة بالقرب من الميدان وما إن انتهيت من شرب القهوة حتى دفعت حسابى وودعتهم فى برود منصرفاً وتركت خلفى نظراتهم المتعجبة .

سرت متجهاً إلى بادنجتون لأزور قريبى " على ".

كان الليل أكثر دفئاً من النهار ، أما السماء فقد خلت من السحب ، وأطلت النجوم على المدينة الكبيرة كأنها تشاهد وتسمع من بعيد ضجيجها وصخبها .

كنت أخترق شوارع حى " الماى فير " الهادئة حين دوى فى سمعى صوت انفجار زاده الليل عنفاً وصرامة .

ظللت لحظة لا أصدق أنه صوت انفجار ، ولكنه تأكد لى أنه حقيقة بعد أن سمعت صوت تكسر الزجاج . وارتطام أشياء واستغاثات بشرية .. وصراخ.

تردد صدى الانفجار فى ذاكرتى وكأنه فَجَّر حاجز الليل والذاكرة السحرية تناثرت أجزاء الحاجز فاندفعت الذكرى سائلة دافئة لزجة كدماء تنزف من جرح حديث ونبح صوت سيارات الشرطة والإنقاذ. تجمدت مكانى تحت مظلة الليل الثقيلة والسائل ينسكب رغماً عنى وجرح يطاردنى حتى فى البلاد البعيدة .

أصيب حزنى بالصمم وراح يقطر فى ذاكرتى دماً. ذاكرتى التى تطايرت حولى كقطع الزجاج والخشب المتكسر .

"... انفجار .. ثم غبار كثيف هائل .. لفحة قوية من الحرارة ، ضوء وهاج ومض ومضة واحدة ثم شظايا تنطلق مذعورة فى كل الاتجاهات من مركز الانفجار والعذاب .وعندما

هدأت عاصفة الغبار والدخان المجنونة كنت قد فقدت كل رغبتي في الحياة ومعظم هدوئى النفسى واتزانى الإنسانى .

كان الخندق أمامى به دماء وحطام خمسة رجال ومدفع .

باقٍ من التقارب الإنسانى فى خندق وحول مدفع أصم وسط صحراء كئيبة افترشت من عمرى مساحة خمس سنوات كاملة من الجفاف ، ونبات الصبار ، وقذائف الهاون وقنابل الفانتوم الأمريكية والميراج الفرنسية ذات العلامات الإسرائيلية .

ماتوا جميعاً .. فى ضربة واحدة ..

مات الحلم معهم .. كنا نضحك ، نغنى ، نكتب الأشعار رسائل الحب و الانفجارات تدوى فوقنا دون توقف .

ماتوا جميعاً فى لحظة واحدة .. وامتزجوا بالتراب وحطام المدفع .

نقلت إلى مدفع آخر بموقع آخر، وشاركت فى إرسال أكثر من مائتى قذيفة ثقيلة من مدفع عيار ١٢٢ مم إلى عدو لا أراه ولا يرانى.. أعطونى نيشاناً وكان من الممكن أن أكون بطلاً بحق .. ولكني اكتشفت أنى كسير القلب.

بمجرد انتهاء الحرب اكتشفت فجأة غربتى الشديدة عن الحياة .. وأنا فى قمة انتصارى .. فقدت لذة الحلم والبراءة .. وبالتالى قوة الأمل ..

{١١}

كنت أنتظر الأتوبيس عندما وجدت يـداً تربـت علـى كتفـى .. كان لزاماً على أن أرتد إلى الخلف اثنتى عشرة سـنة دفعـة واحـدة .. وأنا أعانقه .. زميل الدراسة والشقاوة ثم لعب الكـرة فـى اشـوارع .. " سمير " ورغم أن وداعنا كان منذ سـنوات فـى القـاهرة إلا أن اللقـاء كان فى لندن وأمام فنـدق " هيليتـون " نسـيت إلـى أيـن أنـا ذاهـب وسرنا سوياً نتحدث ونتسابق فى تذكر مغامراتنا وأصدقائنا .

أخبرنى بأنه قد ترك مصر منذ عام واحد . ويعمـل فـى فنـدق كبير قريب من هذا المكان ... وأخبرنى بأنه قـد اسـتطاع أن يحصـل على عقد عمل .. أخبرته بأنى أبحث عن عمل منـذ مـدة طويلـة دون نتيجة .. وما إنْ سمع ذلك حتى طلـب منـى أن أعـود مـرة أخـرى لنذهب إلى الفندق لأنهم يحتاجون لعاملين ... حاولـت أن أؤجـل ذلـك إلى اليوم التالى .. فكنت مرهقاً من طـول سـيرى بحثـاً عـن عمـل ولكنه أصر على الذهاب .. فذهبت معه .

وفى صباح اليوم التالى كنـت أسـتيقظ فـى الخامسـة صـباحاً وأخرج فى جو شديد البرودة لبدأ فى العمل بالفندق .

كان الفندق يقع بالقرب من فندق هيلتـون ويطـل علـى شـارع " الجرين بارك " وكان الفندق – بصفة عامـة – يشـبه سـفينة كبيـرة رست على شاطئ مدينة " لندن " فقد كان العاملون مـن كـل جنسـيات العالم وحجراته التى تزيـد عـن الأربعمائـة حجـرة لا تخلـو طـول العام.

تسلمت عملى ضمن فريق " البورتر " التابع لمكتب الإشراف الداخلى (الهاوس كيير) وكان عمل " البورتر" هو كل عمل يدوى وجسمانى.

ففى الصباح الباكر كنا نوزع على كل مرافق الفندق .. فقد كان بعضنا مسئولاً عن عملية توزيع الملايات والفوط النظيفة إلى الأدوار .. ثم يعود مرة أخرى إلى غرفة " الغيار " حاملاً على عربة صغيرة الملايات والفوط المستخدمة . وفريق آخر يذهب لعمل النظافة فى مرافق الفندق المختلفة . المطعم الرئيسى .. مكاتب الاستعلامات والحجز والتليفونات والخزينة .. وكانت عمليات النظافة تتم كلها بالمكانس الكهربائية " الهوفر" وكان عملنا يقسم على فترات اليوم .. فبعد الانتهاء من نظافة المطعم والبار تقريباً كان وقت الإفطار يكون قد حل .. وبعد تناول الإفطار نذهب إلى مكان آخر .. وهكذا .

كنا نتناول وجباتنا فى المطعم المخصص للعاملين بالدور الثانى . حيث كنا نجتمع فيه رجالاً ونساءً . وكان المطعم المخصص للعاملين عبارة عن صالة فسيحة تنتشر فيها المناضد المعدنية والمقاعد . وفى جزء منها يقع المطبخ حيث كنا نتسلم الطعام بالدور .

كنا نحن المصريين قد اتخذنا منضدة بجوار إحدى النوافذ المطلة على الشارع .

كان أول من يصل إلى المطعم هو " سمير " ثم " يوسف " الذى كان يعمل فى مصر فى مصلحة الضرائب وجاء إلى لندن

ليعمل عدة شهور ثم يشترى جزءاً من أثاث شقة الزوجية .. فقد كان يستعد للزواج .. يهل علينا باقى المصريين تباعاً حيث نتناول وجباتنا ونحن نقص الطرائف ونلقى بالنكات.. وبالقرب من منضدتنا كانت المنضدة التى يتجمع حولها الفتيات البرتغاليات . كانت الفتيات الفلبينيات .. كانت تحتل أكثر من منضدة فقد كن يمثلن نسبة كبيرة من العاملات بالفندق .. تتناثر بعد ذلك الجنسيات المختلفة هنا وهناك ..

كان من أعمدة المصريين " حسين " القصير السمين الذى يعمل فى غرفة الغيار حيث يقوم بتسليم الملايات النظيفة واستلام أكوام الملايات المستعملة .. وكان يعمل معه فى الحجرة خمس فتيات .. وكنا نتندر عليه " "حجرة الخمس فتيات وديك مصرى " كان حسين لا يفيق من السكر إلا ساعات قليلة فى النهار . يأتى إلى العمل مغلق العينين ولا يعرف بالضبط فى أى ساعة نحن . ولولا حسن علاقته بإدارة الفندق لطرد من زمن بعيد .. وعندما كانت باتريشا الإسكتلندية تدخل المطعم لا يتمالك نفسه ويظل قلقاً إلى أن يستأذن منا ويذهب ليجلس بجوارها .

أما " عمر " فقد كان نموذجاً رائعاً آخر فقد كنا نطلق عليه "عمر أبو ذقن " لتميزه عن شخص آخر اسمه عمر يعمل فى المطبخ الرئيسى للفندق .. فما إن يدخل عمر المطعم حتى تنفجر فى الضحك دون مناسبة .. ويحضر إلينا حاملاً طعامه ونظل نستمع إلى مغامراته مع " الشمبرميد " بنات خدمة الأدوار. ونحن نضحك وندعى أننا نصدقه .. فقد كنا نعلم أنه " هجاص " إلا أن كذبه لا يمنعنا من الاستمتاع بحكاياته .

أما فتحى فقد كان طويلاً نحيفاً يضع نظارتين على عينيه .. ويظل صامتاً لا يتحدث .. أو يغنى أغنيات عاطفية بصوت خافت إذا كان معتدل المزاج .

وقصته أغرب من الخيال فمن يصدق أن هذا الشخص النحيف الضعيف النظر عندما خرج من مصر كانت إيطاليا هى هدفه فى البداية .. فقد فشل فى الحصول على تأشيرة دخول لندن.. وفى إيطاليا لم يجد عملاً إلا لاعب أكروبات فى سيرك إيطالى متجول .. قبل العمل رغم أنه لم يشاهد سيركاً فى حياته .. وهناك فى إيطاليا اضطر لأن يركب السيارات المشتعلة . ويقفز فى النيران .. ويقدم الطعام للحيوانات المتوحشة .. ويلعب بلياتشو .. ويركب الدراجات البخارية . وبعد ثلاثة شهور من المغامرات استطاع أن يهرب من صاحب السيرك ويحصل على تأشيرة دخول لندن ويهبط علينا ذات يوم .

كان لكل منا حكاية أغرب من الخيال .. ولكل منا أحلام يمضغها مع الطعام ونشرب بعدها الشاى ونقوم للعمل ونحن في حلم مستمر.

وعندما كنت أنتهى من الطعام كنت أختلس دقائق لأجلس فى غرفة تغيير الملابس لأستمتع بالحديث مع " مستر تشاينا " الرجل الصينى العجوز الذى تعدى السبعين من عمره فى سباقه مع الأيام .. ورغم ذلك فهو غاسل أطباق وصحون فى المطعم الرئيسى بالدور الأول .

كنت من حين لآخر أستمع إلى بعض حكاياته .. فقد عمل بحاراً لسنوات طويلة في الأسطول الصيني .. ولف العالم كله .. وفى كل رحلة مغامرة وفى كل ميناء قصة .

وقد استطاع الهرب في إحدى الرحلات ليعيش في أوروبا وبريطانيا بالتحديد.

كان يتذكر مغامراته التى كانت تأتى إلى ذاكرته شاحبة باهتة كسفينة رحلت بعيداً خلف ضباب الأفق .. وبعد ذلك ينهض ويجر ساقيه ذاهباً للعمل.

كنت قد أمضيت حوالى الشهرين بالفندق عندما بدأوا يعلقون على لوحات الإعلانات ميعاد حفلات الكريسماس التى سيقيمها الفندق للعاملين به .

كنا قد أوغلنا فى الشتاء .. وأصبح النهار قصيراً جداً .. وعندما كنت أخرج من منزلى فى الصباح الباكر كان البرد يواجهنى فى صورة آلاف الدبابيس الصغيرة التى تنغرس فى وجهى وتخترق ملابسى ومعطفى الثقيل .. وتظل تطاردنى حتى أصل إلى الفندق .. حيث الدفء .

استطعت أن أنسى فى العمل همومى وأفكارى .. وكان من الممتع حقاً أن أعمل وسط جنسيات مختلفة .. وكان من الممتع أكثر أن يعمل الإنسان تحت إدارة كلها من النساء والفتيات الجميلات .. حيث كان على رأس مكتب الهاوس كبير .. سيدة ألمانية نزحت

إلى إنجلترا وتتميز بقوة شخصية مع عمق العاطفة .. فقد كانت كالأم الرءوم للجميع صرامة مع بساطة ورحمة مع حسم.

استطعت أن أزيد من ساعات العمل وكان ذلك يعنى أننى أتناول معظم وجباتى بالفندق .. وهذا يجعلنى أوفر ثمن الطعام . وهذا يعنى أيضاً زيادة مرتبى مع كل ساعة تزداد .. وأصبح العمل الشاق المرهق هو المتعة الوحيدة التى أمارسها حيث كنت أخرج من الفندق لا أفكر إلا فى شيء واحد هو الغرفة الدافئة والفراش. وأحياناً كنت أسير فى الشوارع إلى أن يهبط الليل دون هدف حتى أصل إلى منزلى فأتناول عشاءً خفيفاً ثم أنام .

بدأ كل فرد يستعد لحفلات الكريسماس ورأسِ السنة .. بشراء الهدايا والملابس الجديدة ثم البحث عن صديقة ترافقه فى الحفل .. وإلا جلس وحيداً وكأنه ينتظر " القطار " الذي مضى.

توجهت يوم الحفل إلى الفندق وأنا أصطحب بعض الأصدقاء من المصريين .. وكان الحفل مقاماً فى إحدى القاعات الكبرى بالدور الأرضى التى كانت تؤجر طوال العام كقاعة محاضرات أو مؤتمرات وحفلات .

أعدت القاعة لاستقبال المدعويين ووضعت المناضد وحولها المقاعد فى نظام حول حلبة الرقص التى كانت تتوسط القاعة . وفى أحد الأركان امتدت منضدة طويلة عليها أصناف الطعام وبالقرب منها أقيم بار ليقدم المشروبات وكان من تقاليد الحفل أن يقوم المديرون بخدمة العاملين بالمطعم بأنفسهم ، ولهذا وقف أحد كبار المديرين يقدم الطعام للراغبين وخلف البار وقفت الفتاة

الأمريكية التى تعمل " بالهاوس كيبر " ومعها مدير مكتب الأفراد يخدمون الجميع فى ود وبساطة أما فى صدر القاعة وعلى المسرح فقد وضعت أجهزة الصوت الضخمة بمرشحاتها الصوت .

امتلأت القاعة بالرجال والنساء وهم يرتدون ملابس السهرة وقد أعدوا أنفسهم للسعادة بالأناقة والابتسامة. بدأت الموسيقى تنساب من السماعات الكبيرة ممتزجة بالضوء الخافت والهواء المعبق بدخان السجائر ورائحة البارفان ، وأطلق على حين غرة العديد من الابتسامات ولحظات السعادة المقطرة من الزمن .. وابتهج الجو فجأة على لحن قطعة موسيقية هبت كنسمة هواء حلقت لها أطراف فساتين الفتيات وهن يرقصن ، وطرب لها الرجال.

أما حلبة الرقص فقد كانت تستقبل طرقات الأقدام فى ترحيب وابتهاج .. لقد امتزجت النظرات والابتسامات مع النغم المتدفق من الألوان فى إيقاع مبهج .

شعرنا فجأة وكأننا نرتطم بالأرض عندما انطفأت نسمة الموسيقى فى انتظار نسمة أخرى ... وعندما دبت الروح فى القاعة على قطعة أخرى تنفسنا الصعداء جميعاً وبدأنا التحليق معها مرة أخرى. فلا زال هناك مزيد من التحليق .. لقد انصهر الجميع فى مشاعر واحدة وكان من الممكن أن تقترب من فتاة لا نعرفها وتقول لها " أحبك " وتكون صادقاً تمام الصدق .

رحلنا إلى منتصف المسافة بين الحياة والحلم وكنت قد استطعت أن أكتشف فجأة أنى سعيد عندما وجدت " دورا " الفتاة التى كانت ترافقنى فى هذه الليلة تهتز طرباً وتلتصق بى وعيناها تتلألئان بدموع دافئة قادمة من نبع بعيد من " أمريكا الجنوبية " ومن تحت سماء " بوليفيا " ذاتها .

لقد شعرنا بأننا نغوص فى أعماق بعيدة من ألوان مبهجة .. وفقاعات حزينة تنساب على الجدران كالأحلام مع الموسيقى . وعلى خط أفق الليل طافت فراشة فوق الجميع ترتدى فستانا أبيض ووردة حمراء على الصدر ويتوج رأسها شعر أسود مخملى قصير. تعلقت بها العيون وهى تطوف طوافا رشيقاً فوق حلبة الرقص بجمالها المبهر وتوافق روحها وجسدها مع الإيقاع والنغم فى رقصة ناعمة شاعرية اشترك فيها كل أجزاء جسمها حتى فستانها وتموجات شعرها كفرقة راقصة خبيرة فى الامتزاج بالموسيقى الداخلية والخارجية .

قدمت الفتيات الفلبينات رقصة شعبية فلبينية جماعية بالشموع . وغنى شاب زنجى وصفقنا له طويلاً .. وقدم أحد المديرين الشبان رقصة استربتيز فكاهية .. ووسط جمهور الحاضرين وعلى أحد المقاعد وقف رئيس الطباخين الأسبانى " الشف " ليجذب اهتمامنا .. ثم رفع فى الهواء كأساً ممتلئاً بالشراب عدة لحظات كأنه يحمل مشعل المتعة والسعادة ومقلداً لتماثيل الأبطال . تناثر حوله رذاذ الضحكات فى اللحظة التى أطاح فيها بما فى الكأس فى جوفه . تورد وجهه السمين وهو يصرخ محيياً الجميع وربت على كرشه . فى سعادة غامرة مهنئا نفسه على

بطولة لم يفعلها ومهنئاً كرشه العظيم على تفوقه الحاسم على كل الكروش الموجودة بالحفل .

وفى استراحة غمرتها الضحكات والتمنيات الطيبة تناولنا العشاء بسرعة لكى نلحق بالبهجة فى محطتها التالية .

وقرب نهاية السهرة وعلى شاطئ جدول متدفق من الموسيقى غنى الجميع أغنية دعاء ورجاء بأعياد سعيدة .. ثم صدحت من السماء أغنية "إسبانيا برتغال " .. وقبل نهايتها هبت فجأة عاصفة من الصراخ الأنثوى المرح .. ثم أحطن بزميلة لهن.. وتقدمت إلى المنصة إحدى موظفات " الهاوس كيبر " لتعلن خطبة " جون " الذى يعمل بالفندق " نايت بورتر " على " سالى " التى تعمل بمكتب الاستقبال .

هلل الجميع .. واستقبلت الفتاة المخطوبة عشرات من القبلات على خدها الأبيض الجميل .. أما خطيبها فقد احتفى به فريق " البورتر " كما يجب .. حيث سكبوا على رأسه زجاجة مياه غازية كاملة .. ثم حملوه على الأعناق مبتلاً بين الضحك والصفير.

غمرتنا الموسيقى وخفت الضوء .. وكان من الممكن أن تلمح عيوناً مبتلة بالدموع وسط ضجيج فرقعة البالونات التى ابتدعتها الفتيات ثم قلدهم الشباب .

خرجت إلى الشارع بصحبة بعض الأصدقاء .. أما " دورا " البوليفية فقد انصرفت إلى منزلها .

فضلت السير على الأقدام .. فقد كانت هناك أحلام يجب أن تولد .. وأفكار تشتاق إلى الهواء رغم البرودة الشديدة.

كنت قد جلست ضمن لفيف من الأصدقاء والصديقات .. بدأت بمصريين وانتهت بنخبة من عدة جنسيات .. تصدرها " عمر أبو ذقن " .. ورغم أنه كان قد حلق ذقنه قبل أعياد الكريسماس بأيام .. إلا أن اللقب " أبو ذقن " كما هو ولم يستطع بعد حلاقته لذقنه أن يزيله كما أزال الشعر .

كانت بجوارى الرقيقة السمراء القادمة من تحت شمس " بوليفيا " الدافئة وكانت قد سحرتنى برقتها عدة أيام قبل أن تترك العمل فجأة .. ولأنها كانت وافدة جديدة على لندن وتتكلم بالإنجليزية بصعوبة لهذا كان من السهل إذن أن تلمح فى شخصيتها شعور الغرباء أما " أبو ذقن " فقد تأبط فتاة فلبينية على درجة من الجمال الأسيوى لا يمكن أن تنساه بسهولة . وعندما اتسعت الدائرة بفعل أمواج المرح والصخب دارت الأحاديث وملئت بها الدقائق وأفرغت كالمشروبات .

سألنى عمر مختلساً لحظة هدوء عابرة :

- ماذا فعلت فى موضوع الإقامة ؟

أجبته قائلاً :

لم أفعل شيئاً .. ازداد قربا منى ليقول :

- لماذا لا تفكر من الآن فى هذه المشكلة ؟

- أنا لا أحب أن أفكر فى مشكلة قادمة لم تحدث بعد.

تابع كلامه بابتسامة بدت لى خبيثة أو أراد هو أن يعطيها طابع الخبث:

- أنا أستطيع أن أخدمك خدمة العمر .

كان يعرف أننا نأخذ كلامه على أنه مجرد " هجص " فى " هجص " وكان المبرر لذلك قوى .. عدة زجاجات من البيرة أفرغها فى جوفه انتزعنى مرة أخرى حين تشاغلت بالحديث مع " دورا " .

- هل قررت البقاء بانجلترا إلى الأبد ؟

أجبته هامساً وسائراً فى نفس الوقت :

- لم أقرر شيئاً بعد .

- هل ستعود إلى مصر ؟

أكمل دون أن أجيب :

- ستعود إلى الزحام .. وإلى الفقر .. وإلى القلق .. هنا تستطيع أن تنتقد رئيس الحكومة علناً .. بل والملكة .. ولا أحد يؤذيك .. الإنسان هنا له قيمة. تستطيع أن تفعل ما تشاء .. الإنسان هنا له قيمة واحترام وليس مجرد رقم وسط الأرقام تدوسه الأقدام.. ولا حقوق حقيقية له..

قال مؤكداً بحركة من يده فبدا لى صادقاً هذه المرة .

- فكر من الآن .. أنا أنصحك

سألته عن إقامته ، وكنت قد نسيت هذا الموضوع بالرغم أنه قصها علينا أكثر من مرة فأخبرنى أنه تزوج من فتاة إنجليزية.. نظرت رغماً عنى إلى الفتاة الفليبينية التى تلاصقه ففهم قصدى وهمس :

- هذه صديقتى وليست زوجتى .. قلت لك .. زوجتى إنجليزية.

سألته دون تردد وبغباء لا مبرر له :

- ولكن أين زوجتك الإنجليزية إذن ؟

قال وهو يضحك ضحكاً ساخراً وغمز بإحدى عينيه :

- مع عشيقها .. يامحترم .

لم أتمالك نفسي وانفجرت انفجرت ضاحكاً .. فسقطت بعض محتويات كأس من عصير البرتقال على بنطلونى وقال :

- إننى الآن أستحق أن أكون إنجليزياً بمعنى الكلمة .

أكمل قائلاً :

- الذى حدث هو إننى وجدت زوجتى تعد حقائبها بعد زواجى منها بأسبوعين فقط .. سألتها .. إلى أين أنت ذاهبة ياحبيبتى؟

فقالت لى إنها ذاهبة لزيارة صديقها القديم .. فقد اشتاقت إليه ولا تستطيع أن تبعد كل هذه الفترة عنه .

- اضطررت أن أقول لهـا: مـع السـلامة يـا زوجتـى الحبيبـة وتذكرينى عندما تكونين مع صديقك .

نظر فى عينى ليكتم ضحكاتى فى مهدها .. وقال :

- لقـد تصـرفت تصـرف الرجـل المهـذب .. أنـا الآن رجـل متحضر بحق .

هز رأسه ساخراً وقال :

- هل كنت تريد منى أن أثور كما نفعل عندنا فـى الشـرق ؟ هـذا تخلف يا أستاذ .

قال بكلمات تقطر سخرية :

- أرسلت إليها بعد عدة أيام رسـالة رقيقـة وقلـت لهـا اسـتمتعى بوقتك يا زوجتى الحبيبة كما يحلو لـك .. وبعـد أسـبوع واحـد من ذهابها تعرفت على هـذه الفتـاة الفلبينيـة .. وهـى تعـيش معى الآن .

قال متابعاً ليختم حديثه :

- كن متحضراً يا أسـتاذ .. نحـن فـى بـلاد الحريـة .. حريـة الحب .. قبل حرية السياسة ..

قال هذه الجملة وهـو يـنهض ليلحـق برقصـة بـدأت فـى نفـس اللحظة .

{١٢}

واجهتني نسمة هواء أطاحــت بهــدوئى الــداخلى إلــى حــين .. كنت قد انتهيت من العمل مبكراً بعض الشــيء علــى غيــر العــادة .. كان الجو بارداً بعض الشــئ ومشــبعاً برائحــة مدينــة تســتقبل عامــاً جديداً، ومن فوقها كانت السحب المزركشــة الأطــراف بأشــعة شــمس غريبة بالفعل فى بحر من الغروب الأزرق .

ابتعت بعض الصحف والمجلات العربيــة مــن إحــدى دكــاكين الصحف .. ورغم أنى كنت مرهقاً إلا أننــى كنــت راضــياً .. ولكنــي لم أكن حتى هذه اللحظة قد كونت فكرة محــددة عــن موضــوع بقــائى فى لندن .

سرت فى شارع " جرين بارك " ثــم " شــارع ايــد جــار رود " وأنا أتفــرج علــى نوافــذ المحــلات تــذكرت أنــى لــم أزر " ثنــاء " وخطيبها منذ فترة طويلة .. لهذا قررت أن أمضــى لزيــارتهم خاصــة وأمامى فسحة من الوقت إلــى قبــل أن أذهــب إلــى منزلــى.. ورغــم إرهاقى إلا أننى فضلت السير على الأقدام .. وكــان منزلهــا يقــع فــى منطقة " الميدافيل " الهادئة .

دققت جرس شقتها الخارجى وعنــدما لــم تجــب تابعــت الــدق وعندما فتحت أعتذرت بأنها كانت فى الحمام .. ســألتها عــن خطيبهــا " نادر " وأنا أهم بالجلوس .. فــأخبرتنى بأنــه لــم يعــد مــن الخــارج بعد.. لم تجلس معى وإنما دخلت حجرتها عــدة دقــائق ، ثــم خرجــت

وراحت تعد لى الشاى .. سألتنى إن كنت جائعاً لتقدم لى شيئاً آكله فشكرتها .

قدمت لى الشاى وجلست بهدوء على المقعد المجاور .. طالت لحظة الصمت وعندما كنت أخطف نظرة إليها بعد كل رشفة من الفنجان .. كنت ألاحظ أنها تغالب قلقاً وشروداً بدا واضحاً على تعبيرات وجهها .

سألتنى عن العمل الجديد ورحنا نتحدث حديثاً متقطعاً .. وخلف كل هذا كان ما تخفيه داخلها يزداد وضوحاً .. لهذا كان من الضرورى أن أسألها عن السبب فى شرودها إلا أنها أجابتنى إجابة مقتضبة قائلة إنها أرسلت إلى مصر عدة خطابات ولم تتلق أى رد.. وأنها قلقة على والدها جداً ، وهى فى غاية الانشغال عليه . لم أعقب وما إن انتهيت من تناول الشاى حتى بدأت أستعد للانصراف .. سمعت صوت خطوات ترتقى السلالم الخارجية .. وبعد لحظة فتح الباب . دخل " نادر " خطيبها. وحيانى بابتسامة باهتة من وجه مضطرب .. بدا لى أن الجو قد تكهرب لحظة دخوله دون سبب مفهوم .. لم تتحرك ثناء من مكانها ولم ترحب به وتتهلل لحضوره أو تبادله الحديث كما تفعل دائماً . دخل نادر حجرة النوم .

ترددت أنا فى هذه اللحظة .. هل أستأذن وأنصرف أم أبقى.

سمعت صوت إغلاق الدولاب فى حجرة النرم ، وصوت جلبة نهضت "ثناء" وكأن خاطراً ما قد انتشلها من أمامى .. سمعت بعد ذلك صوت همهمة.. ثم صوت نقاش ظل يشتبك ويختلط

ويرتفع حتى أصبح قريباً من الصراخ .. ثم سمعت نشيجاً مكتوماً ثم صوت توسلات هامسة هذا وأنا مكانى مغروز فى مكاني ومقعدى .

خرج " نادر " مندفعاً فى عصبية بالغة مكفهر الوجه .. وعندما وصل إلى باب الشقة كانت " ثناء " تسرع خلفه وتحاول أن تمسك بيده .. فلم يلتفت إليها .. عدل نظارته على وجهه .. ثم دفعها دفعة قوية فى صدرها . ارتدت إلى الخلف .. حاولت أن تمسك به مرة أخرى إلا أنه تخلص منها بحركة عصبية وخرج صافقاً الباب خلفه وتاركاً إياها بين السقوط على الأرض والرغبة فى مقاومة الموقف . هكذا لقد تورطت أنا فى موقف من المواقف الدرامية الصعبة .. موقف لم أكن مستعداً له .. كان انصرافى قد أصبح مستحيلاً . وبقائى واقفاً تحت دش من ضوء مصباح السقف يزيد حيرتى .. نهضت ثناء من علي الأرض وجلست على حافة الكنبة .. ثم جلست أنا الآخر على المقعد لا أتكلم . فقد كان شعورها بالذل هو صدى ما حدث أمامى .. أما دموعها فقد كانت أغزر من توقعى .. وراح صدرها يعلو ويهبط وهى تشهق بين الحين والحين "ماذا أفعل" ؟

سألتنى وهى تغالب شعور المرأة الجريحة ..

- إنه يخوننى يا إبراهيم .

فوجئت بهذه الكلمة .. نظرت إليها أحاول أن أغالب تساؤلات عصفت بى.. ولكننى بقيت صامتاً ، أضافت وهى تمسح دموعها بمنديل فى يدها ..

- يخوننى أنا ؟.

قلت لأقطع استطرادها :

- مؤكد أنها أوهام لا أساس لها .. إنها أوهام الحب ..

كنت أشعر بأن هذا الشعور لا يمكن أن يكون وهما عندما يصل إلى هذه المرحلة لهذا لم أتعجب عندما لوحت بيدها فى عصبية :

- لقد تحملت طويلاً ..

أكدت بوجه عميق الحزن لم أشاهده فى هذه الحالة أبداً .

- لقد شاهدته بنفسى .

شعرت بالحيرة وكأن المذنب هو أنا .. نظرت فى الأرض مطرقاً.. ثم تدافعت دموعها أمواجاً متتابعة على خديها .

- لقد انفجرت بعد طول عذاب .. وها هو قد مضى وتركنى وحدى ماذا أفعل؟ رحت أقول كلمة من هنا وكلمة من هناك لأخفف عنها .ولكننى كنت أشعر بأن وجودى فى هذه اللحظة كان من أحد أسباب زيادة تعاستها .

إنها تعانى فى صمت ، ومن مدة طويلة رغم ابتسامتها الحلوة الودود المتألقة دائماً ، لقد كنت أظن أنها أسعد فتاة فى العالم.. وكأنها لا تعرف شيئاً عن آلامنا البشرية التافهة .. وكأنها قد حققت فوق ذلك كل آمالها وأحلامها فى الحياة وراحت توزع الباقى على الناس دون مقابل .

اقترحت عليها أن تغير ملابسها وتخرج للسير بعض الوقت لعل السير يريح أعصابها .. إلا أنها اعتذرت وقالت لى إنها ستأخذ حبوباً منومة لتنام ..

أمضيت الدقائق التالية صامتاً ثم استأذنت منصرفاً .

قال الوافد الجديد وهو يضع الطعام فى تلذذ :

- إننى مستعد لأن أدفع نصف حياتى .. بل حياتى كلها فى سبيل شيء واحد أن أقضى ليلة مع فتاة إنجليزية شقراء .. أكرر .. شقراء .

- اهتزت الأطباق والملاعق على المنضدة من فرط ضحكنا .. أكمل قائلاً:

- نعم .. إننى أريد أن أتذوق اللحم الأبيض ..

ضربه سمير على كفه وقال له :

- ستفضحنا هنا يا مندوب الفلاحين ..

لقد أطلقنا عليه مندوب الفلاحين .. وهذا كان اسمه بيننا لعدة أيام .. قادما توا من إحدى مدن الأقاليم المصرية .. حاملاً معه لهجته .. بساطته .. انبهاره القروى بالحياة فى لندن .. رغم أنه أنهى دراسته الجامعية منذ سنوات مضت وجاء إلى لندن . فقط ليرى الشقراوات ويرضى رغبته وغرائزه وذلك بحجة الدراسة .. ثم العمل إذا أمكن .

وما إن انتهينا من تناول وجبة الغذاء وأخذنا طريقنا إلى أماكن عملنا حتى وجدنا مكتب الإشراف الداخلى .. يستدعينا ، وبعد دقائق كنا جميعاً نقف أمام الفتاة الأمريكية العصبية أحياناً والجميلة إلى حد كبير. قالت : بعد أن تفحصتنا إن إدارة الفندق تعتذر .. فقد صدرت تعليمات مشددة بفصل كل العاملين بدون تصريح عمل .

تلفت كل منا إلى الآخرين .. أكملت حديثها :

- إن الفندق سوف يرحب بأى شخص منا سيحصل على تصريح العمل ، كل منكم يحل مشكلة الإقامة بطريقته الخاصة ..

عندما نظرنا فى وجوه بعضنا البعض وجدنا أن معظمنا مصريون وأننا جميعاً بلا إقامة قانونية ، بلا تصريح عمل . وبلا أيه تأمينات ضد البطالة أو المرض .. لم يحتج أحد ، ولم يعترض أحد ، ذهبنا إلى غرفة تغيير الملابس .

خرجنا من الفندق ونحن لا نعرف إلى أين ؟

لم يعرف " عمر أبو ذقن " بالخبر .. فقد كان فى يوم عطلته .. لهذا فضلت التوجه إليه مباشرة .. مررت عليه بالمنزل فأخبرتنى فتاته الفلبينية بأنه خرج وسيعود بعد حوالى ساعة .. عدت إليه بعد ساعة ونصف فوجدته ينتظرنى أخبرته بما حدث .. فلم يفاجأ به وقال لى إنه كان يعلم بهذا منذ عدة أيام فقد جاء منشور تحذيرى إلى الفندق بعدم تشغيل من لا يحمل تصريح عمل ولم يشأ أن يزعجنا مبكراً .

انفجر فى قائلاً :

- لقد قلت لك حل المشكلة .. لا سبيل إلا بالزواج .

قلت له يائساً :

- ولكننى لم أحب فتاة إنجليزية .

كان يعد غداء على الطريقة المصرية وكـان يهـوى المطـبخ.. ترك ما فى يده وقف أمامى وقال فى ضيق :

- إذن استعد للرحيل .

قلت له مدافعاً عن فكرة خطرت على ذهنى :

- ولكنى لا أتصور أن أتزوج من إنسانة لا يربطنـى بهـا سـوى ورقة .. وهى تعيش فى مكـان .. وأنـا فـى مكـان آخـر ..أو تعيش معـي دون رغبـة حقيقيـة . انفعـل ، دون أى انفعـال صادق .. فأنا أعرفه حق المعرفة :

- هل تعتقد أنك الوحيد صاحب المبادئ فى هذه الدنيا ؟.

- إنها ليست مبادئ .. ولكنها بديهيات ..

كشف الغطاء عن حلة الطعام .. عاد للحديث بعد أن اطمأن علـى سير الأمور :

- بصراحة أنا أعرف فتاة إنجليزية طيبة جـداً .. كانـت صـديقة لأحد معارفى وقد هجرها منذ فتـرة لخـلاف بينهمـا .. وهـى

محتاجة لنقود .. ولهـذا فهـى مسـتعدة للـزواج نظيـر مبلـغ معين.

سألته فى حدة :

- هل ستعيش معى ؟

قال بنفاد صبر واستدار ناحية الموقد وراح يقلب شيئاً ما على النار:

- إنها من النوع الملـول .. لا تحـب العلاقـات الطويلـة.. يـوم هنا، ويومـان هنـاك. تحـب الشـرب .. والصـداقة ، ولكنهـا ستعطيك حرية الإقامة بإنجلترا .. ماذا قلت ؟

كان ترددى لا مبرر له حين قلت :

- ولكن لا أتصور أن زوجتـى تكـون .. يومـاً هنـا .. ويومـاً هناك..

- تصور من الآن .. كثيرون فعلوها قبلـك .. ولا يوجـد حـل إلا بهذه الوسيلة ماذا قلت؟ .

كانت صديقته الفلبينية قد خرجت مـع صـديقة فلبينيـة أخـرى للتسوق.. أدار أسطوانة لإحدى الفرق الموسيقية الأمريكية .. رحت أستمع إليها وأنا أفكر .. بدا يغرف الطعام الذى حـرك شـهيتى .. فقـد كنـت جوعاناً..

تناولت معه الطعام ونحن نتحدث أحاديث شتى ، وتعمدت ألا نعود للحديث الأصلى ربما أصل إلى قرار .. قلت له أخيراً :

- أنا متردد ..

قال لينهى الحديث :

- سوف تضيع الفرصة منك ..

حضر أحد جيرانه من المصريين لعدة دقائق ثم انصرف .. وبعد ذلك بعدة دقائق سألته :

- هل لى أن أراها ؟

أجاب بسرعة :

- نعم .. دقيقتين فقط وتكون هنا .. إنها تسكن فى المنزل المجاور مباشرة ارتدى ملابسه بسرعة وغاب عدة دقائق ثم عاد متهلل الوجه :

- إنها قادمة خلفى ..

مضت عشر دقائق أو يزيد قبل أن يدق جرس الباب .. ثم تدخل علينا .

كانت " مارجريت " وهذا اسمها .. فتاة نحيفة ذات شعر أصفر ينسدل حتى قرب كتفيها وتطل من عينيها الزرقاوين الواسعتين نظرة حائرة بلا معنى .

افتعلت ابتسامة مهذبة وهى تصافحنى .. أما أنا فكنت متجهماً .. ولكنى قلت دون أى مبرر وموجها حديثى إلى صديقى " عمر " .

- تحيا الامبراطورية البريطانية ..

ضحك عمر .. ولم يكن هناك أيه علاقة بين مارجريت والإمبراطوية البريطانية.. لاحظت أنها تدخن بشراهة .. وأنها ترتدى بنطلون جينز أزرق كالح اللون .. وقميصاً خفيفاً فوقه " بلوفر" بلا أكمام.. ثم جاكت صوف خلعته عند دخولها ووضعته على أقرب مقعد .. ثم جلست باسترخاء.

رحت أتأملها بهدوء وأنا فى حيرة . قدم لها "عمر" فنجان قهوة. وبدأت تتناوله في هدوء.

حضرت صديقة " عمر " الفلبينية وهى تجر حقيبة المشتريات الأسبوعية .. وملأت بحضورها الحجرة بالحركة وكانت فتاة هادئة وطيبة على النقيض من " عمر " تماماً .

استأذنت من " عمر " على أساس أنى سأعطيه قرارى في اليوم التالي .

ظللت أقلب الفكرة أثناء عودتى إلى منزلى .. كان تفكيرى كله تفكير الهاربين والخارجين عن القانون .. كل الطرق لا تؤدى إلا إلى نتيجة واحدة هى مزيد من الهروب إلى نهاية لا يعلم بها إلا الله وحده .

رفضت الفكرة وخلعتها من ذهنى تماماً كما خلعت ملابسى عندما وصلت المنزل ونمت مستريحاً لهذا القرار .. وفى الصباح كنت مقتنعاً تمام الاقتناع بالعكس وهو أنه لا حل لى إلا بالزواج وبهذه الطريقة المؤسفة.

أعددت غدائى بنفسى وتمددت فترة الظهيرة ولم أفعل شيئاً سوى تصفح بعض المجلات كأننى أتصفح أفكارى .

وفى المساء ذهبت إلى "عمر" وأخبرته بقرارى النهائى (وكان رابع قرار أتخذه فى يوم) سألته عن المبلغ الذى تريده نظير هذا الزواج فأخبرنى بأنها تريد خمسة آلاف جنيه استرلينى .

لم يكن معى سوى ثلاثة آلاف جنيه استطعت أن أحتفظ بها من عمل متصل حوالى عام كامل .. كان المبلغ كبيراً جداً بالنسبة لى لهذا طلبت منه أن يتفاوض معها لتخفيض هذا المبلغ .. فطلب منى أن أعود بعد ساعة .

وعندما عدت إليه مرة أخرى كان قد استطاع أن يخفض المبلغ .. فأصبح المبلغ أربعة الآف جنيه فقط .. فوافقت على الفور.

أخبرنى " عمر " قبل انصرافى بأنها الآن تعيش مع صديق جديد تعرفت عليه حديثاً .. وطلب منى ألا يؤثر ذلك على الاتفاق. وقد وعدت بأنها سوف تزورك وتقضي معك بعض الوقت من حين لآخر ..

لم أفكر فى هذا الأمر .. فقد كان كل تفكيرى فى كيفية تدبير باقى المبلغ .

{١٣}

كان الطقس مفاجأة لي.. فقد كان الجو صحواً ودافئاً علــى غيــر العادة في هذا الوقت من العام.. ارتجفت الأشجار بأوراقها تحــت شــمس ساطعة ونهار مبهج.

كان الجو كله يصلح لأن يكون يوم زواج سعيد وناجح فعلاً.

ذهبت إلى مكتب تسجيل الزواج أنا ومارجريــت .. وكانــت قــد حضرت وهي ترتدي فستاناً أزرق ووضعت بعض المكياج.. فبدت أكثــر جمالاً وجاذبية. حضر بعدنا "عمر" و "علي" ليكونا شاهدي عقد الزواج.

كان كل منا يعرف دوره جيداً.. ولكن أكون دقيقــاً فــي إخــراج المسرحية استعرت جاكتاً كحلياً أنيقاً ذا صفين من الأزرار النحاسية.

أما باقى الملابس، القميص الجديد ذو الياقة المنشاة ، ورباط العنق، والحذاء الجديد والبنطلون الرمادى . فقد استطعت أن أدبر مبلغــاً مــن المال لشراء هذه الأشياء لهذه المناسبة .

أتممنا إجراءات كتابة العقد أمام موظف حاول جاهداً ومبتســماً أن يصدقنا وأن يهنئنا .. خرجنا من مكتب التسجيل وتوجهنا إلى محل قريــب لتناول بعض الحلوى مع الشاى احتفالاً بهذه المناسبة الســعيدة .. وأثنــاء تناولنا الشاى أردت أن اختبر جدية كون أن الموضوع كله مجرد تمثيلية . فقد سألت زوجتى الجميلة التى كانت تجلس بجواري إذا كان لديها وقــت لتحضر إلى غرفتي لتناول الغداء ،ولكنها كانت أكثر صدقاً والتزاماً منــى لكون العملية تمثيلية مدفوعة الأجر أعتذرت بأدب شديد وقالت لــى إنهــا على موعد مع صديقها وعليها أن تذهب بعد دقائق نظرت إلــى عينيهــا

باهتتى الزرقة. ثم ساعدتها فى إشعال سيجارتها وأنـــا أبتســـم ابتســـامة عريضة مهنئا نفسي على هذا الزواج الغريب .

لم أعلق وتناولت الشاى وأنا أتصنع البرود وعدم الاكتراث .

كتبت لها عنوان منزلى .. وأعلنت لها فى أدب وبساطة أنى مستعد لاستقبالها فى أى وقت .. ابتسمت لى وقالت إنها سوف تزورنى قريباً ثـــم سلمتها باقى المبلغ المتفق عليه . وكان " عمر " قد أعطاها مبلغا قبل كتابة العقد بيوم . ودعتنا وانصرفت بسرعة لتلحق بصديقها .

ابتسمت بينى وبين نفسى ، ثم سرت أنـــا و "عمـــر " و "علـــى " متخذين طريقنا إلى منزلى . وهناك تحدثنا عدة دقائق فى أمور شتى . ثم تركونى وانصرفوا . وعندما انفردت بنفسى وجدتني أضحك من قلبى على أسوأ دور مثلته فى حياتى وعلى كل المهزلة التى حدثت .

{١٤}

كانت " مارجريت " تزورنى من وقت إلى آخر ، وكانت زيارتهـــا تتم دون موعد سابق . فجأه أجدها تطرق الباب وما إن تدخل حتى ألاحظ سكرها الشديد .. وقبل أن تجلس تكون قد طلبت نقوداً .. لقــد أصـــبحت بالنسبة لها مصدر دخل ثابت . فقد كنت فى حاجة إليها وإلـــى اســـتمرار التمثيلية إلى أن يتم التصديق على الإقامة وعلى إعطائى حرية الإقامة .

كانت تحضر أحياناً بصحبة بعض الصديقات أو الأصدقاء، وكانت تطلب منى أن أخرج معهم وأدفع بالتالى حساب مشـــروباتهم وأكلهـــم .. كنت أتحمل على مضض .

لم تزرنى وهى فى حالة طبيعة إلا فى القليل النادر .. وهنا كانت تبدو فتاة طيبة هادئة الطبع مهذبة للغاية . بل ومثقفة .. وفى هذه المرات القليلة كانت تشاركنى الطعام فى هدوء وتظل تتحـــدث إلـــى أن تســـتأذن وتنصرف لحالها . لم أفكر .. ولم أحاول أن أقبلها أو أن ألمس يـــدها .. فلقد حافظت على حريتها لقد احترمت الاتفاق ، ولهـــذا ظلـــت الزوجـــة العذراء .. على الأقل بالنسبة لى .. أما مع أصدقائها العديدين فهذا شـــأن آخر .

كان شيطانها الحقيقى الشرب .. كانت تشرب وتسكر كل ليلـــة .. وبالتالى كانت تكره العمل رغم أنها تجيد أكثـــر مـــن لغـــة .. وعملـــت كسكرتيرة عدة سنوات كانت فوق ذلك جميلة إلى حد ما ولكنهـــا منطفئـــة الروح .. وضائعة .. ويظهر ضياعها بحق عندما تكون مخمورة .. علمت أنها عملت بعض الوقت كمدرسة للأطفال فى إحدى مـــدن الريـــف ، ثـــم

سئمت العمل فى الريف وعملت مطربة فى فرقة موسيقية متجولة .. ثم هجرت كل هذا وهبطت لندن .

وانطلقت بعد ذلك وهى لا تعرف إلى أين بالضبط ؟

كانت زياراتها مع أصدقائها تكلفنى الكثير .. وطلبها للنقود لا يتوقف .. لهذا تراكمت على الديون .. حتى حصلت على حرية الإقامة والعمل بعد أكثر من عامين من العذاب .

كنت فى ذلك الوقت سائحاً فى لندن .. أعمل عملاً متقطعاً كعامل باليومية فى معظم الأحيان .. عملت فى مخبز فى ضواحى لندن يومى السبت والأحد .. واشتغلت عامل نظافة بالساعة فى مصنع للحلوى . واشتغلت حارساً للمعاطف فى إحدى قاعات الاحتفالات . كنت أقف بالساعات وأنا أرتدى الجاكت والبيبيون . تعلمت أن أنحنى لأحصل على البقشيش .

عملت جرسوناً باليومية فى الحفلات .. وتعلمت أيضاً كيف أبتسم وأنا أتألم وأنحنى فى أدب وظهرى يؤلمنى .. وفي نفس الوقت أفكر فى الساعات القادمة حيث سأقضيها فى إحدى الجراجات أغسل السيارات والأرض .

قمت بتحميل عشرات السيارات بالخبز .. انحنيت آلاف المرات وظهرى يؤلمنى .. مسحت عشرات الكيلومترات من البلاط . قمت بتخريط أطنان من البصل والكرنب والخس والطماطم فى المطاعم المتناثرة فى أنحاء لندن .. حملت مئات الحقائب إلى حجرات الزبائن فى فنادق "كوينزوى" ، وبادنجتون وفيكتوريا .

كان يمر على عشرون ساعة فى عمل متصل .. ثم أنـــام يـــومين متتاليين .. وكثيراً ما أظل بلا عملاً أسبوعاً أو أسبوعين . زرت " ثناء " أثناء ذلك فى فترات متباعدة حسب ما يسمح وقتى . وكان الصيف قد غمر الشوارع بشمسه الدافئة . كنت ألاحظ اكتئابها المستمر وتـــدهور حالتهـــا النفسية . فقد كانت فى محنة عاطفية حقيقية .. وفى بلاد غريبة .. كنـــت أفكر فيها كثيراً ولكننى كنت مثلها أصدق . أو أحاول أن أصدق أنها نزوة من عاشق متهور وسوف يعود حتماً إلى حبه الحقيقى .

علمت بأنه قد عاد إليها معتذراً ، بل وباكياً .. وتصـــالحا وعاشـــا سويا مرة أخرى فترة من الوقت . ولكن بذور الانشقاق كانت قـــد مـــدت جذورها فى نفسيهما فقد بدأت تشك فيه مرة أخرى .. أما هو فقـــد كـــان ينتظر على ما يبدو ، صيداً جديداً .

وعندما كنت أمر مروراً عابراً علي أصدقائى القدامى فى الفنـــدق الذى كنت أعمل به وجدت أحد زملائى يسلمنى مظروفاً صغيراً علمت قبل أن أفتحه أنه من " ثناء ".

كانت تطلب منى أن أحاول المرور عليها فى أقرب وقت ممكن .. تأخرت فى تلبية هذا الطلب لأنى كنت مشغولاً فى موضوع الإقامة .. لقد شعرت من خلال سطور الرسالة أن هناك مشكلة ما . وأن " نادر " قد بدأ يلعب من جديد .

كنت أريد فى هذا الوقت ألا أتورط فى مشكلة عاطفية لست طرفاً فيها .. ولكننى كنت أعرف ما تعانيه " ثناء " من وحدة .. هذا كنت أشعر أيضاً شعوراً مؤكداً بأنها تعيش على وهم الحب الذى تحطم بسبب شـــاب أهوج لا يحترم مشاعرها .

علمت من خطابها أنها قد انتقلت إلى سكن آخر وتعيش بمفردهــا بعد أن هجرها للمرة الثانية كانت لازالت تعيش فى دائرتهــا المغلقــة .. كانت مخلصة فى حبها .. صادقة فى شــعورها .. لهــذا كانــت تغــامر بعاطفتها لآخر لحظة .

عندما ذهبت لزيارتها بعد أن تلقيت رسالتها لــم أجــدها ولكننــى وجدت " الهاوس كيبر " تخبرنى بأنها فى المستشفى وقد نقلت إليهــا فــى حالة خطرة ودون تفكير منى إتجهت إلى سـكن " نــادر " علــى الأقــل لأستطلع الخبر ولكنى علمت من أحد جيرانه بأنه قد سافر إلى اسكتلندا مع صديقه جديدة له .

أصبح الأمر واضحاً .. إننى أمام مأساة .

وفى المستشفى التقيت بظل " ثناء " فقد هالنى شــحوبها الشــديد وحزنها الذى غمر حياتها فى لحظات ضعفها .. كانت نائمة .. وظللــت بجوارها واقفاً أتاملها بعمق .. شعرها الأسود على وجهها الرقيق الهــادئ الشاحب كان يبدو كذكرى بعيدة ..

انقلب الجو وأصبح شديد البرودة .. وأنا أمضى إلى منزلى غارقاً فى أفكارى .

فها أنذا أعيش قصة حب .. وخيانة من تلك القصــص الإنســانية الحادة ..

لقد كانت " ثناء " شخصية جذابة رغم بساطتها الشديدة .

اكتشفت أثناء نومها ورقادها أجمل ما فيها عندما غاب عنها إلـــى حين " حبها الشديد للحياة " فقد كانت تضفى على الابتسامة وعلى الكلمـــة وعلى اللفتة معنى جميلاً مفقوداً دائماً .. لم تكن رائعة الجمال ولكنها كانت نسمة رقيقة لكل من حولها .. وعندما عرفتنى علـــى خطيبهـــا " نـــادر " حاولت أن أحبه ولكنى فشلت .. ورغم ابتسامتها الدائمة فقد كنـــت دائمـــاً ألمح معنى غامضاً خلف ابتسامتها .. ولم أسألها من قبل عن ذلك ولكنـــى الآن .. أصبحت أعرف .

{١٥}

أوقدت المدفأة عند دخـــولى الحجـــرة ، فقـــد كانـــت بـــاردة كصندوق معدنى مغلق ، أعددت لنفسى وجبة ســـريعة خفيفـــة مـــن الحساء واللحم والبطاطس والسلطة.

سمعت طرقـــات علـــى البـــاب عنـــدما بـــدأت فـــى تنـــاول الطعام.. وعندما فتحت الباب أقتحمتنى نظـــرة ســـكيرة مـــن عينـــى مارجريت .. لم يكن حضورها مفاجـــأة لـــي ولا حتـــى ســـكرها .. ولكن المفاجأة هى حضورها مع شـــاب طويـــل عـــريض ، ينســـدل شعره الأصفر حتى يلامس كتفيـــه. وقفـــت لحظـــة خلـــف البـــاب.. ابتسمت هى ثم قالت لى:

- صديقى مايكل .

تذكرت بسرعة أنى رأيتـــه أكثـــر مـــن مـــرة ومعهـــا فـــى الحانة .ابتلعت الطعام الذى فى فمـــى ووقفـــت أســـتجمع نفســـى .. نظرت نحوى نظرة مترنحة :

- لم لا تدعه يدخل .. إنه صديقى .

قلت بأدب جم :

- لا أستطيع .. آسف

حدقت بعينيها ورمشت .. كانت إجابتى مفاجأة تامة لها .

- قلت لك إنه صديقى .

اشتعلت نار غضب كتمته شهور طويلة مـــن الابتـــزاز المهـــذب .. قلت بهدوء وصرامة :

- لا أستطيع .

لم تكن قد دخلت بعـــد ، انفلتـــت ودخلـــت الحجـــرة ثـــم صـــرخت قائلة:

- إذن أعطنى مائتى جنيه فوراً .

- لن أعطيك شيئاً .

راحت تتأملنى مندهشة وكان سكرها عائقـــاً لـــه وزنـــه لكـــى تفهـــم ما أعنيه .. قالت متوترة :

- إذن أعطنى أى مبلغ .

قلت بهدوء أشد :

- خذى من صديقك هذا ..

تابع صديقها " مايكل " المناقشة هادئاً ، قالت بعصبية :

- لا يوجد معه نقود ..

- وأنا لن أعطيك نقوداً .

- دعه إذن يدخل إلى أن تدبر نقوداً .

حاولت أن تجذب صديقها إلى الداخل إلا أنني منعته بيدى .. نظرت فى وجهى وهى لا تصدق .. دفعتها إلى الخارج بقوة دون مقدمات. وتوتر الجو تحت هدوء صارم .. صرخت فيها :

- اذهبى مع صديقك الآن .. ولا ترينى وجهك .

صرخت هى أيضاً :

- لا لن أذهب .. أريد نقوداً .

دفعتها مرة أخرى بقوة غيظ مكتوم .. كادت تسقط على الأرض . حاول صديقها أن يتدخل فدفعته هو الآخر وأنا أصرخ فيهما .

- اذهبا من هنا فوراً .

حاولت أن تنقض على وهى تبكى .. صفعتها على وجهها صفعة شديدة اهتز لها شعر رأسها وتناثر فى الهواء .. حاول " مايكل " الثور الأبيض السكير أن يهجم على إلا أننى حاولت أن أغلق الباب لأمنعه .. دفع الباب بقوة وحاول أن يمسك بى فانسحبت إلى داخل الحجرة وقذفته بمقعد خشبى تحاشاه وهو يزداد هياجاً .

اندفعت إليه أنا الآخر فى ثورة غضب وسددت إليه الضربة "الشعبية المصرية" ضربة من رأسي فى أنفه .. اندفع الدم على أثرها من أنفه وأغرق نصف وجهه السفلى .. كانت

مفاجأة تامة له ولى أيضاً.. حاول الاندفاع نحوى مرة أخرى إلا أننى سددت إليه من قرب ضربة قوية فى بطنه فانحنى على نفسه يغالب آلامه .

وهنا وجدت أنه من الضرورى انتهاز الفرصة التى سنحت ولن تتكرر .. فأهديت إليه فى لمح البصر باقة رائعة من اللكمات . تقبلها على وجهه العريض المتقلص من الألم ، والدم يتدفق من ثقبى أنفه كأنه يندفع من صنبور مفتوح عن آخرة .. حاول أن يهجم على مرة أخرى ولكننى دفعته خارج الحجرة فسقط على السلالم متدحرجاً . أما مارجريت فقد صرخت بصوت مرتفع حاولت أن تهجم على وتعضنى فى ذراعى إلا أننى دفعتها بقدمى فسقطت هى الأخرى .

أغلقت الباب وأنا أتنفس بصعوبة .. كان قميصى قد تمزق وتناثرت على يدى بقع الدماء .

تمددت على الفراش لألتقط أنفاسى وأهدأ .. وضربات قلبى تدق بسرعة رهيبة .. هدأت نفسى وأنا أستعيد ما حدث مستمتعاً بلذة المنتصر لكرامته التى امتهنت .

{١٦}

نهضت لأغسل وجهى .. وألقيت بجسدى المنهك على الفــراش .. استيقظت وتناولت شاى الصباح الثقيل على الطريقة المصــرية وتناولــت إفطاراً مكوناً من البيض والجبن .ولأن الوقت كان لا يزال مبكــراً علــى زيارة " ثناء " فى المستشفى لهذا قررت أن أقضى بعض الوقت بحديقــة "الهايد بارك" أسرعت عبر حدائق " كنسنجتون " وألقيت بتحيــة الصــباح الصافية على أشجار الحديقة التى كانت تقف عارية مــن الأوراق داكنــة اللون كخطوط رسام مكتئب النفس .

كانت السماء صافية رغم البرودة الشديدة .. وما إن وصلت إلــى البحيرة حتى كان الدفء يسرى فى جسدى .. كانت الطيور تلهو وتقفــز مشرقة بالفرحة .

كان قريبى " على " قد انتقل للعمل بكافيتريا " الســربنناين " التــى التى تطل على البحيرة .. تناولت فنجاناً من القهوة مع قطعة حلــوى . " أخذت مكاناً بالشرفة الخارجية رغم برودة الجو .. كان الحمام الرمــادى والعصافير تملأ المنضاد الرخامية وتتناول بمناقيرها بقايا قطع الخبز من على الصوانى المتروكة على المناضد تناولت القهوة مع قطع الكيك.

كان البط فى البحيرة يغطس ثم يطفو .. ثم تنقض ريشه ويتسابق لالتقاط قطع الخبز الطافية على سطح الماء ، والتى كان يلقيها اثنان مــن السائحين ، حامت طيور النورس ثم طارت بعيداً فوق البحيرة والقوارب ثم عادت لترقد فوق سطح المياه .

تعالت على الأجناب تلال الخضرة ، والأشجار كثيفة الأغصـــان . تناولت القهوة هادئ النفس فى حين أن الكافيتريا امتلأت بـــالرواد فجـــأة وراح أحد الزائرين اليابانيين يصور زوجته الحسناء وطفليه بكاميرا فيديو.

شعرت بالبرود فدخلت لأكمل القهوة بالداخل .. لم أجد مكانا كنـــت أبحث عن منضدة بالقرب من الحاجز الزجاجى لأطل على المنظر الـــذى أعشقه. استأذنت رجلاً يجلس بمفرده بجوار حاجز الزجاج وبعد جلوســـى بلحظات أيقظنى من شرودى بسؤال :

- هل أنت مصرى ؟

هززت رأسى بالإيجاب .. فابتسم وتكلم بالعربية :

- أنا مصرى أيضاً .

هززت رأسى محيياً فى برود وبلا اهتمام وقت لحظة صمت تخللها منظر الطيور بالخارج والبحيرة والأشجار .

سألنى :

- طالب ؟

حرت فى الإجابة .. ولكننى قلت :

- لا.. أعمل .

هز رأسه وكأن إجابتى قد شوقته الى شىء ما .

- هل لك فترة طويلة هنا ؟

تمنيت بينى وبين نفسى أن يتركنى هذه اللحظة لأستمتع بمنظر الطيور وهى تتصارع على قطعة من الخبز .. قلت له باختصار :

- منذ حوالى عام ونصف .. تقريباً.

هز رأسه متعجباً:

-مدة ليست طويلة .. ولكن متى تنوى العودة إلى مصر؟

رحلت بعيداً بنظرى .. وفكرت جاهداً لأجد إجابة إلا أننى قلت له وأنا حائر :

- لا أعرف..

تساءل هامساً:

- هل أنت راض عن التجربة ؟

لم أجب ولكنه قال وكأنه نسى شيئاً هاماً:

- صلاح فهمى محام .. وأديب فى نفس الوقت.

خيل إلى أننى فعلاً قد سمعت بهذا الاسم من قبل ..

بدأت أتأمله من جديد .. كان فى الأربعين ، ومبتسماً، هادئاً رغم عمق نظراته .. سألته لإضاعة الوقت ، فقد كانت رغبتى فى الحديث منعدمة تماماً :

- هل أنت هنا فى رحلة أدبية .. أم للسياحة ..

لم يتركني أسوق التخمينات فقد قال بتحديد أزعجني وأيقظني:

- أريد أن أرى الدنيا .. ومن خلالها أرى نفسي .

نظر من خلال حاجز الزجاج إلى البحيرة والحديقة المترامية الأطراف.

ولأنهم قليلون من يتحدثون بهذه الطريقة البسيطة الشاملة التي تبدو وكأنك تقرأها في كتاب .. لهذا أثار انتباهي ورغبتي في الاستماع اليه.

قلت :

- أما أنا .. فقد جئت لأعرف بالضبط .. ماذا ينقصني لأعيش حياتي سعيداً.

سألني باهتمام شديد :

- هل عرفت ؟

فأجبت .. قلت له وأنا أنهي قدح القهوة:

- للآن..لا

اشتبك حديثنا وازداد ترابطا، لهذا خرجنا سويا من الكافيتريا نسير على شاطئ البحيرة..

لاحظت هجوماً شاملاً لسحب داكنة على السماء.. استطاعت السيطرة على منتصف السماء بالضبط .. وعندما كنت أودعه وأحدد معه موعداً للقاء القادم كانت السحب الداكنة قد استطاعت أن تحجب أشعة الشمس "الباردة " وكانت أطراف الأغصان العليا تستقبل أولى قطرات المطر.. فى حين أن الطيور راحت ترحل من مكان لآخر لتبلغ النبأ المفرح للجميع "سوف يهطل المطر مدراراً ".

{١٧}

صافحت نظراتى وجـه " ثنـاء " لـدى دخـولى حجرتهـا بالمستشفى .. استقبلتنى بابتسامة من شفتين شاحبتّين .. ووجه هادئ الملامح كأنه صورة فوتوغرافية التقطت لها منذ فترة طويلة .. عين ساهمة – انحنى باتجاهها زهرتان من زهرية موضـوعة بجوارهـا والضوء القادم من النافذة يتمطى على الأرض والسـرير.. ارتجـف قلبى عندما أمسكت بيدها وضغطت عليها برفق .

هتف وكأنه يريد أن يقول شيئاً لم أفهمه .. وبعد مقدمـة غيـر قصيرة من الصمت بادرتنى هى :

– لماذا لم تسأل عني طوال هذه الفترة ؟

كنت قد انقطعت عنها فترة من الزمن .. ولم تكن قد علمت بعد بأنى قد زرتها أمس ووجدتها نائمة .. لم تقتنع بأعذارى .. العمـل .. عدم وجود وقت .. مشكلة الإقامة .. لهذا شعرت بالذنب لأول مـرة تجاهها.

أيقظنى من شعورى الذى غرقت فيه رغبة فى البكاء أطلت من ملامحها حينما قالت :

– أنا فى محنة حقيقية ..

أفصحت عيناها عن حجم ما تعانيه . كان رهيباً لهذا انكمشـتُ على نفسى حاولت أن أردد كلمات لا معنى لها أمام عـذاب حقيقـى

لإنسان ضعيف أمام الحياة والمرض. قالت متابعة وكأنها قرأت أفكاري.

- ليس المرض .. ولكن حياتى ..

أكملت .. وأنا شارد بعيداً عنها :

- لقد شاهدت فى هذه الفترة ما لم أشاهده فى حياتى كلها .

كنت أعلم أنها تعانى .. ولكننى الآن فقط وجدت أننى ارتكبت خطأ كبيراً واكتشفت أيضاً ما هو أخطر .. عدم قدرتى على التواصل الإنسانى العميق مع الآخرين. غلاف من العزلة كنت أشعر به أحياناً. والآن أصبح حقيقة . قلت في نفسي:

كان من الواجب أن أهتم بها اهتماماً أكثر جدية ..

كان المجرى الذى بداخلى جافاً .. مشققاً .. كانت حقيقة داخلية مفزعة شعرت بها من قبل ولم أكتشفها واضحة إلا الآن .. أردت اللجوء إليها:

- أعتذر عن تأخرى فى الحضور كنت في مشاغل لا حصر لها ..

سألتنى مبتسمة :

- سمعت أنك قد تزوجت من إنجليزية ..

هززت رأسى وانتظرت لحظة أبحث فيها عن تعليق . تساءلت المرأة فيها:

- هل تعيش معك ؟

قلت لأنهى الحديث فى هذا الموضوع :

- لقد كان عقد الزواج .. هو نفسه عقد الانفصال الأبدى .. من زواجي المدهش.

- قصصت عليها موجزاً من تجربة الأيام الأخيرة والمهزلة التي عشتها .

- ضحكت كثيراً عندما قصصت عليها بالتفصيل يوم زواجي .

ولكنها شردت فجأة وسكن وجهها على تعبير غامض كأنه طائر غريب هبط على وجهها:

- لم أشعر فى حياتى باليأس كما أشعر الآن .

قلت لها :

- إن الإنسان فى لحظات ضعفه يشعر بأن كل شيء حوله لا معنى له .. وعندما يشفى ..

قاطعتنى بأسى لمحته لأول مرة فى روحها الشاحبة خافتة الضوء كالشمعة:

- وهل هناك شيء حولنا له معنى ؟

تعلقت نظراتى بوجهها. أخرجت يدها من تحت الغطاء ، وأشارت بيدها إشارة معناها " أنها خلعت خاتم الخطوبة نهائياً " .

سرحت بعيداً وهى تغالب دموعاً حائرة حارة .. احمر لها جفناها . ظلت تقاوم .. ثم ترقرقت أخيراً تحت رموش عينيها فتفجر فى نفسى شعور بالعذاب لا حد له . من أجلها ومن أجل الحياة التى أحبتها ببراءة وثقة ثم استدارت وأعطتها ظهرها فى لحظة خافتة .

لم أعلق على موقفها وظللت صامتا .. وحاولت أن أحثها علي التفاؤل بكلماتى .. إلا أنها قاطعتنى ذات لحظة وقالت بحنان :

- لن أنسى أبداً .. اهتمامك بى .

ازداد شعورى بالتقصير تجاهها .. وشعرت فى ذات الوقت برغبة عارمة فى أن أفعل أى شيء يسعدها .. خاصة فى هذه الظروف التى تمر بها ..

فقالت مبتسمة :

- رغم ذلك .. أنت الوحيد الذى يسأل عنى . ودليل إخلاصك حضورك دائماً وحدك..

كان هناك شيء ينمو داخلى باستمرار .. شيء كالحزن العميق أو الشجن .كادت الدموع تفر من عينى أمامها عندما قالت لى وأنا أصافحها :

- أنا فى أشد الحاجة إليك .

تماسكت لحظة .. واستبدت بى رغبة فى أن أكون وحـــدى ... لقد حركت بكلمة واحدة شعوراً غائراً من الصعب مقاومته .. قالـــت وكأنها تذكرنى بحقيقة يجب أن أتذكرها .. أو أنساها .. لا أعلم :

– لقد أحببته .. نعم .. ولكن دفعت الثمن باهظاً .

ربت على يديها الباردتين الرقيقتين .. وانصرفت لحظة لأواجه نهاراً كاملاً داكناً بفعل سحب رمادية كثيفة راحت ترحل فـــى قطـــع كبيرة كجبال الثلج ذاهبة إلى مكان مجهول .

تكررت زياراتى لها واتصل حوارنا هادئـــاً ونبتـــت نباتـــات خضراء على حافة جدولى .. ترقرقت دموعى أكثر من مرة وحرقت جفونى وأنا أجلس بجوارها أستمع إليها .

أما هى فظلت قابعة فى قاع الشـــحوب والضـــعف مهزومـــة بضربة غدر عاطفية مفاجئة . ولا تملك القدرة على الانتصار عليها.

{١٨}

غادرت المستشفى واتجهت من فوري إلى (الأديب) مصطفى فهمى.

لقد وجدت نفسى مدفوعاً لزيارته تحت وطأة شعور مبهم ظل يتدرج ويرتجف له قلبى ارتجافاً وتتصدع له سكينتى ويحز فى قلبى حزاً فقد كنت قد سألت الممرضة قبل لقائى الأخير بها . سألتها مصادفة عن حالتها وعن إمكانية عودتها للمنزل ، إلا أن الممرضة أخبرتنى بأنها قد تحتاج لفترة أطول مما أظن لكى لا تتعرض حياتها للخطر . فلقد طلب الطبيب إجراء مزيد من التحاليل الطبية لها وكنت حتى هذه اللحظة أعتقد بأن الأمر لا يزيد عن أزمة نفسية . لم أكن أعلم التفاصيل الدقيقة لمرضها لعدم إلمامى بالطب .كنت أعلم فقط أنها قد تناولت فى لحظة من لحظات ضعفها ويأسها علبة كاملة من الأقراص المنومة. ليس بهدف الموت فى حد ذاته . ولكن كمحاولة أخيرة لإثارة شفقته عليها . والتعبير عما تعانيه من يأس لا يشعر به أحد،خاصة فى قلب رجل انصرف عنها بعواطفه كما ينصرف طفل من دمية إلى أخرى .. كنت أعلم ايضاً – رغم أنها قد نسيت ذلك تماماً.وكذلك أنا – أنها قد حضرت إلى لندن وهى تعانى مرضاً قديماً بالقلب .. مرضاً خلقياً ظهرت بوادره عليها فى طفولتها .. وبعد أن أجرت الفحوص الطبية فى لندن واطمأنت تمام الإطمئنان إلى أنها تستطيع أن تعيش حياتها بصورة طبيعية تماماً .. مع الابتعاد قدر الإمكان عن الانفعالات الحادة .. ولأن حبها للحياة أقوى من أيه قوة تستطيع أن تعترضها.. استطاعت إذن أن تنسى مرضها القديم تماماً .

وأن تنسى شيئاً آخر لا يقل عن مرضها أهمية .. وهو قصة خطوبتها الأولى .

لقد قصت على قصة خطوبتها الأولى على فترات متفاوتة ومتباينة .. أيام مرحها وتألقها كانت تحكيها وهى تضحك من قلبها عندما تعرفت عليها فى أول مطعم عملت به .. ونحن نحيط بضحكاتها الحلوة نتلقاها ونستمتع بها. أما فى مرضها فقد كانت تحكيها بأسف وشعور غائر بالذنب .. دون أن يكون هناك ذنب حقيقى.

كانت خطيبها الأول شاباً يمت لها بصلة قرابة .

وكان من الطراز الريفى الذى لم تستطع دراسته العليا وانتقاله من مدينة إلى مدينة أن تغير منه شيئاً .. كان أيضاً متفوقاً وكان فى طريقه لأن يحتل منصباً فى هيئة تدريس الجامعة بعد الانتهاء من دراسة الدكتوراه .

اكتشفت بعد خطوبتها منه بعدة شهور بأنها لا تحبه رغم طيبته الشديدة وحبه لها . لقد بررت لى أسباب تبرمها منه أيام مرحها وفى فترات الراحة القصيرة ونحن نعمل فى المطعم سوياً .

قالت لى وهى تضحك إنها كانت تعانى معاناة شديدة من ذوقه الرديء فى اختيار ملابسه . فقد كان متفوقاً فى اختيار أسوأ الألوان خاصة لون جواربه وقمصانه، أما ذوقه فى اختيار أربطة العنق كان يصيبها بالاكتئاب الحاد والرغبة فى القيء. قلدت لى ذات مرة طريقة

سيره، وطريقته الريفية فى الحديث . وضحكت من قلبى .كنا وقتهـا نتناول الشاى بعد الانتهاء من العمل .

لقد صممت على فسخ الخطوبة رغم معارضة أهلها . فقد كانت فى نظرهم مجنونة حقاً .. فهى ترفض الحب ، والطيبة ، والأخـلاق الريفية، ومستقبلاً بدا مضموناً تماماً .

سافرت إلى لندن بعد ذلك ضمن فوج من أفواج الشباب وهنـا خاضت تجربة الحياة والعمل بفرح طفولى متلألئ ،منبهـرة بالحيـاة الجديدة . بدأت تشعر بالذنب تجاه خطيبها السابق بالتدريج فقـد كـان يحبها حباً جماً صامتاً لا يعرف كيف يفصـح عنـه سـوى بـالغيرة الشديدة.

لقد علمت من أهلها أن نفسيته قد تأثرت بعد فسـخ الخطوبـة وبعد سفرها . فقد كان تصرفها صدمة كاملة بالنسبة له ويبدو أنه لـم يقتنع . كما لم يقتنع أهلها أيضاً بموضوع الحب . ولكنها نسيت الأمر كله عندما صادفت فجأة هنا فى لندن ذلك الشاب الوسيم ابن أحد كبار المسئولين بالحكومة المصرية والذى تأتى له الخطابات فـى الحقيبـة الدبلوماسية أسبوعياً . سحرها بطريقة حديثه وأناقته ، ووسامته. لقـد لخص لها فجأة ذلك العالم المفقود لفتاة من أسرة مصـرية بسـيطة ، خارجة تواً من سنوات المراهقة ومن قيود زواج كانت ستتورط فيه ، ومن قيود تقاليد عاطفية تكبلها ولأنها طيبة القلب . صادقة الشعور .. أحبته .

أحبته من أول بادرة،أملاً فى الحب ذاته لقد أجاد التعبير عـن مشاعره .. الصادق منها والكاذب أيضاً . أجاد كما يجيد فى اختيـار

قمصانه وأربطة عنقه وبنطلوناته . هذا فى مقابل تجربتها السابقة أمام رجل يحبهـا بشـدة ولا يجيـد التعبيـر عـن هـذا الحـب سـوى بالصمت.أرخت العنان لخيول مشاعرها الحبيسة.. فانطلقت فى سهول العاطفة دون تردد .

وقد يكون " نادر " قد أحبها فهى حقاً جديرة بالإعجاب إن لـم يكن من النظرة الأولى فعلى الأقل من أول كلمة تتبادلها معهـا . ثـم أول ضحكة صافية كالبللور من القلب . وأول شعور بالبهجة تثيره فى نفسك عند مصاحبتها .

اقتنع بأنها جديرة بالحب ، خاصة عندما حاول أن يلهو بهـا ، ومعها وأن ينصب الشباك المعروفة من قبل .. من معسول الكـلام .. وأحلام الحب الوردية .

لم تصده ولكنها صمدت والحب هدفها .. وبأخلاق فتاة مصرية من الطبقة المتوسطة حددت هدفها. راغ طويلاً .. وأغرقها فى وعود كانت تتبخر تباعاً .

لقد كانت أكثر منه نضجاً رغم أنها ترددت طويلاً قبل اجتيـاز عامها الخامس والعشرين آنذاك، لهذا لم يستطع شيئاً سوى أن يسـلم لها. لقد وجد نفسه يريدها حقاً .. ولا يستطيع أن يتخلص من تأثيرهـا البسيط جداً ، المبهج الذى لا ينسى بسهولة .

لقد تأكدت بنفسى من أنها قد علمته الكثير فى الحياة رغم أنـه يكبرها بخمس سنوات على الأقل .

وإذا كان أبناء الأغنياء يتمتعون إلى حد ما بالثقة فـــى أنفســـهم وأموالهم .. فإن الأولاد أصحاب النفوذ والسلطة المطلقـــة غالبـــاً مـــا يكونون ضعيفى الإرادة كانعكاس ضرورى لأســـلوب حيـــاة آبـــائهم والسلطة المطلقة. وليثبت لها أنه يحبها وأنه جدير بها فقد نفذ رغبتهـــا فى سرعة إعلان الخطبة وقد تم ذلك . ولقد شاهدت أثنـــاء زيـــاراتي الصور الملونة لهذا الحفل فى إحدى الأمسيات اللطيفة قبـــل حـــدوث الأزمة . وكما أنه نفذ رغبتها فى إعلان الخطبة ، نفذت هى رغبته - بعد مقاومة شديدة - فى الانتقال إلى شقته إلى أن يـــتم الـــزواج فـــى مصر وسط الأهل .. لقد فشلت فى مقاومة الوحدة مع قلـــب مشـــتعل بالحب لا يهدأ. وقاومت الغربة فى مدينة لا تعرف مشـــاعرها حـــق المعرفة .. وجدت أخيراً أنه لا مفر من العيش ســـوياً مـــادام الحـــب يجمعهما وأنهما يسيران على الطريق . وكان أيضاً المثل القائل " افعل فى روما ما يفعله الرومان " لا يزال مقبولاً ومقنعاً إلى حد كبيـــر .. على الأقل بالنسبة لها . وإلا لماذا حضرت إلى لندن ؟

{١٩}

كنتُ غارقا حتى كتفى فى مقعد وثير من مقاعد استقبال الفندق. شارداً غير متابع لبرنامج تلفزيونى كــان يشــد معظــم الموجــودين بالقاعة.

ووجدته أمامى فجأة ، وفوجئ بأنى لم أكن أراه رغم أنى كنت أنظر باتجاهه . انتزعت نفسى من أفكارى .. ولقد كنــت أحــاول أن أكتشف المستقبل وما يمكن أن يحدث فيه بإحساس من قرأ كثيراً مــن الروايات العاطفية فى سنوات المراهقة ، فضلت الخروج والسير فــى الشوارع عن الجلوس فى الفندق أعطيت له القصص التى كــان قــد أعطاها لى فى مرة سابقة لقراءتها وكانت كلها من تأليفه . أبديت لــه أعجابى ببعضها ورحنا نتناقش أثناء سيرنا كان لــه أسـلوب ســاخر مميز، مرح أحياناً ولكنه ينبع من قرار شعور بعيد الأغوار بالأسى .

قصصت دون قصد قصتى مع " ثناء " وكان قد لاحظ شرودى وقلقى الدفين فى الأيام الأخيرة . وعندما انتهيت من حــديثى بــادرنى متسائلاً :

- كيف تتخيل إذن ملامح الطريق ؟

سألته بدورى :

- أى طريق ؟

- طريق الخلاص من حيرتك .

قلت يائساً:

- لا أعرف .

أكملت:

- ليتنى أمتلك قدرتك على التحليل والتفكير .

ابتسم ابتسامة غامضة .

- بأى شيء سيفيدك ذلك .

- على الأقل لأكون هادئاً ومتماسكاً من الداخل أمـــام العواطـــف التى تهب على مثلك ضحك ساخراً :

- من قال لك أنى هادئ من الداخل ؟

- هذا ما أراه .

التفت نحوى وقال بحرارة .

- أنت لم تشاهد الحقيقة .

كنا قد وصلنا المنطقة التى يسكن بها قريبى " على " ووجـــدت نفسى أمام الفندق الذى يعمل به " سمير " الذى يسكن فى نفس منزل " على " كان سمير يعمل كموظف استقبال صباحاً وفى المســـاء كـــان يعمل بأحد المسارح بمنطقة " البيكاد يللى " وكنا كثيراً ما نلتقى عنده " أنا وعلى " سواء هنا فى مقر عمله .. أو فى حجرته التى تقع فى نفس

منزل " على " وفى المنزل أيضاً كان يسكن"جورج" مع زوجة مصرية. ولأنهم كانوا جيران " على " وأصدقاءه .

قدمت له الأستاذ مصطفى . ورحنا نتحدث حديثاً متفرقاً إلى أن يصل " على " من العمل حضر " جمال " ومعه " توفيق " وهما من أصدقاء سمير.

هتف سمير دون مقدمات :

- أهلا بالأصلع .

التفت خلفى فوجدت " جورج " يدخل وهو يحمل حقيبته السوداء قال " جورج " لسمير :

- أيقظنى الساعة السابعة صباحاً لو سمحت .

سأله سمير مازحاً :

- لماذا لا توقظك زوجتك ؟

قال " جورج " إنها مرهقة للغاية .

انصرف " جورج " بعد أن صافحنى وبعد أن حيا الأستاذ مصطفى.

تحول الحديث بعد انصرافه عنه .. فقد حضر منذ أربع سنوات لتحضير الدكتوراه فى الهندسة الكهربائية على نفقته الخاصة . وكان كفاحه وكفاح زوجته "مريم" محور حديث كل الأصدقاء، فقد كان يعمل طوال الليل ويذهب إلى الجامعة فى الصباح ولم يكن ينام سوى ثلاث

ساعات فى اليوم وكان يوم إجازته الأسبوعية هو يوم النـــوم . ومـــن خلفه كانت زوجته تعمل طوال أيام الأســـبوع لتـــوفر معـــه تكـــاليف الدراسة الباهظة فى إصرار وصبر ونظرة صافية وابتسامة حانية .

جاء "حسين" ليلاً وراح يقص علينا قصة من خيالـــه الخصـــب فضحكنا .. راح يترنح ويغنى .. ثم قال :

- لا تظنوا أنى سكران ياولاد ...

كان يريد أن يسبنا ولكنه انتبه إلى وجود الأستاذ مصـــطفى .. أقنعناه بأننا نصدقه ، وقبل أن ينصرف طلب " جمـــال وتوفيـــق " أن يذهبا معه إلى المنزل لأنه يخاف أن يوقفه رجال الشرطة وهو يقـــود سيارته وبفمه رائحة كأس واحد فقط من النبيذ .

خرجنا من الفندق وتناولنا سندويتشات " شاورمه " من مطعـــم أمام الفندق مباشرة ثم دخلنا ملهى "بادنجتون" . وأمضينا عدة دقـــائق وسط موسيقى عصبية تخدر بضجيجها عشرات الشبان وفـــى أيـــديهم أقداح البيرة تترجرج.

استأذن " على " لأنه كان على موعد مع صديقته الكندية التـــى تعرف عليها حديثاً . أكملت سيرى مع الأستاذ مصطفى لنتجول فـــى المنطقة دون هدف أكمل الحوار الذى انقطع :

- أنا مثلاً .. لم أفهمك إلا من خلال أزمتى أنا .

قال بهدوء عميق :

- إن الإنسان الحق .. الواعى بوجوده الإنسانى يظل فى حالة أزمة دائمة .

كانت المرة الأولى التى أسمعة يتحدث عن نفسه .. لهذا استمعت إليه بشغف .

قال بكلمات ثابتة:

- إن الإنسان يبحث دائماً عن نقطة التوازن فى حياته .. فإن الشعور بعدم الاتزان هو الذي يدفع الإنسان .. هو القلق .. الطموح .. الإرادة . قد يكون الهدف الظاهرى .. مال .. سلطة .. علم .. حسب .

كانت البرودة تنفذ خلال جسدى فأشعر بالقشعريرة اللذيذة .

أكمل قائلاً :

- إن الوصول إلى نقطة الاتزان .. هو الخلاص الحقيقي ..

أمام محطة " بادنجتون " للسكة الحديد وقف سكير " بادنجتون " الشهير ليلاكم ألد أعدائه فى المنطقة كلها .. عمود الإضاءة .

كان يدور حول العمود متحفزاً ويسدد اللكمات فى الهواء دون رحمة أو هوادة والعمود ينشر فوقه ساخراً مظلة من الضوء .

أشار إلى السكير المتحفز .

- إنه لم يجد نقطة توازن له .. ولا حتى نقطة إرشاد .. فجنح كما تجنح السفن الضالة في البحر .. هز رأسه وابتسم :

- ولم يغرق فى الماء كما تغرق السفن ..ولكنه غرق فى زجاجات الكحول علّه يصل إلى قاعها .. فيكشف أثناء سكره.. معنى وجوده الفارغ من المعنى .

سرنا على مهل في الشوارع التى بدت هادئة :

- إن الوصول إلى هذه النقطة .. بإرادة من حديد هى الانتصار.. وعندها يصبح الإنسان فى القمة .. قمة الحياة التى تكافئ الموت ذاته .

مسحت وجهى نسمة رائعة باردة .. قال بوضوح وحدة لم أعهدها من قبل:

- ومن يعرف أن توازنه مختل ويتجاهل ذلك .. يجد نفسه يغرق بالتدريج فى مستنقع آسن .. اسمه الحياة.

سار مجموعة من الشباب وهم يغنون أغنية جماعية ..

امتلأت الشوارع بهم فجأة كان ثمة مباراة هامة فى كرة القدم بين العدوين اللدودين اسكتلندا وإنجلترا ،، انسكب الشباب القادمون من ضواحى لندن فى الشوارع .. مرددين أناشيدهم رافعين أعلامهم.. محتقنى الوجه من أقداح البيرة التى صبوها فى جوفهم ليلة المباراة .

دخلنا مطعماً يواجه مستشفى " سانت ميرى " وطلبنا قهوة باللبن .. طلبت أنا قطعة كيك مع القهوة .. كنت مشغولاً بتقطيعها عندما قال بعد حديث طويل:

- لقد انتهيت من تأليف رواية أعتبرها من أروع ما كتبت .. وسوف تحقق لى نجاحاً كبيراً .. لأنها تجربتى الذاتية .. وفى الفصل الأخير من هذه الرواية ينتصر الخير على الشر ككل الروايات .. والأفلام السينمائية .

كنا قد انتهينا من تناول القهوة ورحنا ننظر من خلال حاجز الزجاج إلى رواد الحانات الذين خرجوا تحت مظلة الليل العظيم .

- بعد أن انتهيت من الرواية .. شعرت بأنى أكذب .

قال وعيناه تلمعان ببريق غريب رافعاً سبابته فى الفراغ المواجه له :

- لأن ما حدث فى حياتى عكس ذلك تماماً .. فى حياتى الواقعية.. انتصر الشر انتصاراً ساحقاً.

وبصوت هادئ عميق كأنه زفرة حصان متعب يعانى بعد سباق مرير خسره .

- لقد عذبنى .. وقتل أجمل ما فى حياتى .. أوصلنى إلى اليأس الكامل ..

أتعرف ما هو اليأس الكامل؟

أكمل بصوت عميق :

- دمر حياتي .. قضى على أصدقائي

سألته: مسألة سياسية

قال بحسم :

- مسألة أكبر من السياسة.. مسألة المبادئ والحق والعدل.

أصبحت مشحوناً بطاقة داخلية غريبة .. من التحفز والتشوق قلت بعد فترة تابعت فيها شروده :

- ولكن أين الخير حولنا لنمسك به .. أين هو ؟

أكملت:

إنها كلمات تبدو وكأنها بلا معنى حقيقى . نظر فى وجهى ثم شرد كأنه يتحسس كلماتى بيد خبير .. أطرق طويلاً ..،شعرت بأهمية ما قلت لهذا تابعت:

- أين الخير حولنا.. أين؟

قلت بلا مبالاة :

- لقد عرفت هنا بعض الفتيات لأقاوم شعوراً حاداً بالوحدة .. وكنت أشعر بالذنب بعد كل علاقة .. كنت أتمزق وأحزن لأن الحرام داخلى .. والدين جزء من فكرى ومن وجدانى ورغم ذلك لا أستطيع عمل شيء .. لقد كذبت أكثر من كل مرة لكى أحصل على عمل .. وعلى نقود .. وعلى طعام .. استمع إلىّ فى قلق وراحت صفحة وجهه ترتعش وتموج بانفعالات دفينة..

نظر إلى بطرف عينيه ثم مد نظره إلى الإمام مفكراً ..

قلت مكملاً حديثى :

- هل أنا شرير ؟

تابعت

- لقد حاربت وقتلت كثيراً من الأعداء.. هل أنا شرير؟.

رجع بجسده إلى الخلف وبسط ذراعيه على امتـدادهما فـوق المسند . نظر قليلاً إلى أعلى وقال متنهداً :

- إن هذه الكلمات الكبيرة تثير الحيرة فينا ..

أكمل بكلمات حادة حازمة وعيناه تتسعان وتنظران نحوى :

- من المؤكد أن هناك خيراً .. وهناك شراً .

نظر فى فزع مفاجئ خلال حـاجز الزجـاج إلـى الطريـق والناس.. وتأمل صفاً من الرياضيين يحيطون بعلبة سجائر فى إعلان أنيق على الجدار المقابل.

- وإلا أصبحنا فى جحيم لا يطاق .

رنت لحظة صمت تخللها صوت الملاعق والأطبـاق وأغنيـة أدارها صاحب المطعم .. مرت سـيارة شـرطة بالشـارع زاعقـة بصوتها.. قال من خلف ستار أحلامه وأفكاره التى حجبته عنى برهة:

- إن الشر الذى مر بحياتى يعيش هنا فى لندن ..

- كانت مفاجأة لى .

فاعتدلت واقتربت منه برأسى :

- هنا ؟

أجاب مؤكداً :

- نعم هنا ..

لحظة صمت مقطرة طويلة رقدت بيننا على المنضـــدة رائعـــة ككوب ماء :

سألته هامساً :

- طعنة صديق ؟

لم يجب . تابعت قلقاً :

- خيانة ؟

برقت عينه تعبير قاس أزعجنى .. لقد كان ذا نظــرة هادئـــة حالمة أحياناً عذبة دائماً تأملت فى إلحاح :

- مسألة سياسية ؟

- مسألة مبادئ.. مسألة حق وعدل..

- كرر بقسوه: لقد دمر حياتي وحياة أصدقائي.

تجمد وجهه على تعبير غير محدد متجهم ثم حك ذقنه وهو تائه فى شعور غامض .. استعد للنهوض فاقترب الجرسون . دفع الحساب نيابة عنى فلم أتكلم.

قال وكأنه يحدث شخصاً آخر بعيداً .. يراه هو وحده:

- لهذا .. فأنا أفكر فى الوسيلة التى أدمر بها الشر كما دمرنى .. على الأقل لأختم روايتى ختاماً صادقاً يزرع الأمل حقيقــة .. وليس كذباً وابدأ حياة جديدة. نهض فجأة ومضى خارجاً.

- ستنتقم لنفسك ؟

كنت ألاحقه بخطواتى .. كانت محلات المنطقــة قــد أغلقــت أبوابها وتناثر السكارى وهواة السير فى الليل مثلنا .

- سأنتقم للخير ..

سمعت صرير أسنانه .. ونظراته الحادة :

- سوف أواجهه مهما كان الثمن .. إنه الشر .. الشر مجسداً ..

لهثت لأتابع كلماته .. فضلت الاستماع إلى صــوت خطــواتى وهى تتشابك وتختلط مع صوت خطواته .

سرنا سوياً حتى فندقه .. ودعته لدى الباب وأكملت إلى منزلى وأنا أشتعل من الداخل اشتعالاً .

{٢٠}

تمددت على الفراش بعد أن أطفأت المصباح .. وسبحت مع الظلام الشفاف إلى وجدانى . ومشاعرى المغمورة .. كان ثمة لهيب قد شب فى كل خلايا جسمى وعقلى . تأملت حياتى كلها على ضوء كلماته .. وجدت نفسى فجأة فى ساحة تؤدى إلى العديد من الطرق .. وسؤال كعلامات الإرشاد يعترض طريقى :

ما الذى يمنعنى عن " ثناء" : ؟

نهضت من فراشى وأوقدت المدفأة التى انطفأت .. أضأت المصباح وجلست على المقعد .. ثم عدت إلى الفراش .

- أهى عقدة الرجل الثانى الذى أعرفه ؟

لم أكتشف سمك هذا الحاجز الذى يمنعنى عنها إلا الآن ..

- نعم .. لقد كنت أخشى ما تحت الرماد .. وما بعد الإطفاء بالحب عاصفة هوجاء تدوى دون حساب فوق القرى الساكنة .. لقد عاشت أكثر من عام مع رجل هجرها .

ماذا فى الأعماق ؟ ماذا خلف الصمت والمرارة ؟

كنت أهرب من السؤال .. وأنا الرجل ذو الطباع الشرقية .. لقد شعرت بأنها تعرف ما أعانيه لقد حاولت أن تمد لى حبالاً مجدولة من التفاهم العميق والمشاعر الرقيقة لتنقذنى وتشدنى إلى عالمها ولكننى كنت حائراً .

لقد مضى على رقادها بالمستشفى عدة أسابيع .. كنت معها كل يوم . انشغلت بها أكثر من نفسى .. وشبح ابتسامتها يودعنى كل ليلة.. ويرافقنى حتى آخر اختلاجة من جفونى قبل النوم .. كانت زيارتى لها فترة راحة عميقة لنفسى ولأفكارى كنت أترك عملى وأسرع إليها لأتاملها ولأزرع فى نفسها أملاً .. أملاً أنا فى حاجة إليه أكثر منها .. لماذا إذن ؟ .

كانت أكثر شجاعة منى رغم ضعفها ولأن الرغبة فى الاعتراف تزداد حدة كلما تقدم الإنسان فى العمر .. وكلما ازداد ضعفاً .. وكلما أراد أن ينمى المشاركة الوجدانية . لهذا انتهزت فرصة الصمت الطويل فى ليلة باردة خافتة الضوء لتتكلم.

كنت أنصت إليها وملامحها ترتجف ارتجافة شمعة أمام نسمة قوية فتية تصر على أن تطفئها .

لقد كان هجره لها ضربة قاضية لكل أمانيها وأحلامها .. فقد كان حبها الأول – حقيقة . لهذا كان الصدى الداخلى لكل ما جرى شعوراً عميقاً بالخطيئة ولد لديها شعوراً حاداً باليأس .. لهذا كان اللجوء إلى فكرة الموت هو الملاذ. فى هذا الوقت لم تجد سوى يد صديقتها التى مدت إليها لتلوذ بها ولو إلى حين .. تطفو على سطح الظلام الكامل الذى غرقت فيه فجأة .. لم تكن صديقتها بالمعنى الحرفى للكلمة .. ولكنها زاملتها فترة من الزمن عندما حضرت حديثاً إلى لندن .. واختصرت هذه الصديقة الطريق من البداية . فقد اكتشفت مواهب جديدة فى شخصيتها وفى جسدها تغنيها عن البحث عن عمل من تلك الأعمال المعروفة .. تغنيها أيضاً عن الوقوف بالساعات فى المطابخ .. أو تلبية طلبات الزبائن فى المطاعم .. لقد اختصرت الطريق .. وفتح لها الليل أبوابه وكان تقديره مواهبها تقديراً حسناً فى الملاهى الليلية .. لقد اعترفت لى بأنها قد ذهبت معها وهى لا تعرف فى البداية إلى أين ؟ ومتى يعرف الإنسان بالضبط إلى أين هو ذاهب وماذا سوف يحدث ؟ وهناك فى أحد الملاهى العربية الليلية التى انتشرت فى لندن بعد الغزو المالى العربى هناك كان للسعادة ثمن وللحب أيضاً ثمن مدفوع مقدماً أو مؤخراً حسب الحالة.

سقطت عليها الأضواء فكستها برقائق ضوئية لامعة لم تصل لأكثر من عمل قشرة الجلد الخارجية أما أعماقها فشيء آخر تماماً.

كانت صديقتها هذه تعمل كساقية فى الملهى الساهر دائماً .. وفى القاعة الفسيحة الأنيقة كانت السعادة تقدم فى زجاجات ترقد وسط قطع الثلج . أو رقصات شرقية وهزات للبطن والأوراك والأضواء تلعب بكل

ذلك ودفاتر شيكات دسمة، وصفقات سرية كل هذا كان يعمق لديها شعور الغربة والعذاب والضباب. الضوء الخبير الواثق لم تكن قد عرفت بعد أنها الجوهرة الجديدة التى بحث عنها ثرى شرقى هوايته جمع " جواهر النساء " لم تكن تعلم أنها البسيطة الغريبة المضطربة كعصفور فى ليلة بـــاردة .. هى نفسها الجوهرة المفقودة .. وعلى منضدة مترعة بكل صنوف الطعــام والشراب والمشهيات وكل ما يجعل الإنسان ينسي .. لم تنس هـــى أنهـــا غريبة. وأنها لا تبحث إلا عن الحب:

- هل سقطت ؟

لقد وجدت نفسها فى عالم لم يتطرق إلى أحلامها .. ولم تعلـــم أن صديقتها هذه قد باعتها سراً إلى عالم الليل والنقود والجسد .

دعيت فى الليلة التالية ضمن مجموعة من الصـــديقات العربيـــات المحترفات إلى عشاء فى قصر الثرى أخصائى الجواهر .. لقد اقتنع بأنها قد استسلمت لإغرائه له .

وهناك فى قصره المحاط بحراس أشداء من أشجار مهذبـــة بأيـــد خبيرة .. وخضرة منسقة طول العام كان من الممكن أن تسمع الضـــحكات مع صوت إغلاق السيارات وتخبط الثلج فى الكئوس مـــع صـــوت فـــتح سدادات زجاجات الخمور .

أما داخل القصر فقد ظلت الضحكات المشتراة سلفاً تنطلـــق هنـــا وهناك كطيور للزينة أحسن تربيتها وتغذيتها فـــى أقفـــاص ذات قضـــبان مذهبة.

عزفت الموسيقى والتصق الضوء الحالم بالجدران. كان يراقصها ورقص هواة الرقص. كانت هناك باقة كاملة من النساء يمثلن أروع ما فى الدنيا من جمال ومن انحلال مهذب ودعارة محتشمة متظاهرة بالتعالى والأرستقراطية .

وقد كانت اللعبة معروفة جيداً .. بل ومحفوظة رغم أن الجميع كان يبدي أنه لا يفهم .. وهنا تكمن المتعة .

لم تكتشف " ثناء " أن الأمر كله مجرد مؤامرة إلا مؤخراً عندما امتدت الليلة مفترشة معظم الليل حتى أطراف نهار جاء متأخراً بعض الشيء عن ميعاده.

كان " هارون الرشيد " قد اعتقد أنه قد امتلك الجوهرة .. وأنها قد ضُمت إلى جواهره القديمة والجديدة . فقد كان أجمل ما فيها فى هذه اللحظة هو البراءة التامة .. وهو شيء مفتقد تماماً فى مثل هذه السهرات .

أما هى فقد كانت تشعر بأن الموسيقى تعزف على أوتار مشاعرها وعلى أنغام حزنها فى ليلة مجردة من القلب ومن بعض الملابس أيضاً .

لقد اكتشفت ذات لحظة أن الجميع قد انسحبوا خلف أبواب ظهرت فجأة أو فى رقصات حالمة من فرط النشوة .. ووجدت نفسها أمام " الجواهرجى " الواثق من نفسه ومن أمواله على الأقل .. لقد اشتراها أو هكذا اعتقد .

صرخت صرخة من أعماق قلبها وحزنها .. كانت مفاجأة تامة له.. لقد أسقطت صرختها غلاف الضوء الخادع وسقطت القشور وتمزقت الأستار وظهرت الليلة عارية تماماً .. نعم ظهر كل شيء عارياً .

تجمع الساهرون المستمتعون بالسكر متعجبين بها عرض عليها الثرى أمامهم وزنها نقوداً .. ولكنها انكمشت داخلها .. وخرجت إلى الحديقة تستغيث بالحراس الأشداء الصامتين .. أو بضوء الصباح على الأقل وسط غمزات الاستنكار ونظرات الدهشة والاستغراب. كانت في نظرهم. "أنها تريد أن تبدو أنها شريفة لترفع سعرها "...

تعثرت .. وكانت على وشك السقوط .. ولكنها نجت بمعجزة .

لهذا خرجت من هذه الليلة بشعور مرير راح يتكون داخلها "كالخراج" قلت لها بعد ذلك بشهور طويلة وهى ترقد أمامي فى المستشفى بعد نوبة الاعتراف " الحادة " التى أصابتها .

- كل منا تعرض ذات يوم لخطر السقوط فلسنا ملائكة على الأرض ..

ولكنها قالت بصدق أرضانى :

- كنت أحتاج لإنسان يحمينى "يحميني" من العذاب الذي في نفسي أنا على الأقل فكرت في العودة إلى مصر.. ولكن ... كانت السنوات قد مرت بسرعة.

قالت وأنا أكاد أدمع من التأثر لكلماتها والصدق الذى رقد فى قلبها دافئاً ومؤثراً:

- أنت لا تعرف مقدار عذاب امرأة أخلصت فـــى حبهــا وأعطــت كل شيء .. ثم صدمت فى هــذا الحــب .. إنهــا تتحــول إلـــى تراب . نعم.. أنا الآن امرأة من تراب.

قلت فى نفسى بعد أن صدمني صدقها وشجاعتها.

- الآن فقط أعرف ..

ولم تكن تعرف هى أننى كنت فى حاجة مثلها لمن يحمينـــى مـــن شيء مجهول داخلى ، شيء يرتعش ، ثم يهدأ ثم يصخب كفيضان ويفور كبركان.

تركتها بعد أن نامت من إرهاق الكلمات.

اتجهت إلى المستشفى بعد الانتهاء من العمل . وقفت بجوارها عدة لحظات أتأملها فى هدوء .. كانت نائمة .. غائبة عن العالم، انسدل شعرها الأسود الفاحم على وجهها فغطى جزءاً من عينيها خلف ستار رقيق . أما شفتاها المكتنزتان الموحيتان بابتسامة دائمة .. فقــد ظهرتــا رمـــاديتين باهتتين حزينتين .

لم أشأ أن أوقظها من النوم لأقاوم خاطراً غريباً ألم بى .

عدت إلى منزلي والحوار الداخلى يتصـــل ويتشـــابك ويتصـــاعد وخاطر مبهم يلح على مع كل خطوة من خطواتى .. عدت إلـــى المنـــزل سيراً على الأقدام. لقد أمضيت خمس سنوات فى الخندق الأمامى للحياة .. وجهاً لوجه .. للموت كانت أحلام اليقظة الرطبة ملاذنـــا فـــى مواجهـــة

عواصف الرمال وحرارة الصحراء .. وقصف الطائرات .. فى جبهة قناة السويس. دفنت أصدقاء الخندق بيدي. وكأن حياتي بعدهم أصبحت عقاب لذنب مجهول. لهذا أصبت بضعف فى عضلات الإرادة لقد أصبح سلامى الظاهرى هو حربى المشتعلة إلى تهب فى جنون لا تخبو نارها. فعندما عدت من الخلف وانقشعت فقاعة الدخان والتراب .. كنت قد ارتددت ارتداداً فظيعاً ومريعاً إلى نفسى . انسحبت إلى الداخل.

أى نداء مجهول .. هذا الذى دفعنى لأن أخرج من الخندق وأذهب إلى الخندق الخلفى لإحضار شيء ما .. نداء خافت دفعنى للخروج دون تفكير.. وما إن وصلت إلى الخلف حتى دوى الانفجار كالصدمة المفاجئة المتوقعة دائماً .. والمستحيلة التصديق أيضاً .. لقد تحقق النداء التحذيرى القادم من المجهول رأساً إلى قلبى .

لقد ذهبوا جميعاً فى لحظة واحدة .. لماذا تركتُهم في هذه اللحظة؟

"لماذا ذهبوا جميعاً كأنهم ينبذوننى رغم أنى كنت أحبهم ؟ " ..

إنها تعانى في براءة ورقة .. ولقد أصبحت تحت تأثيرها .. صوتها المرتجف ، وجهها الشاحب حديثها الحلو .. وصمتها الرائع المثير لأرق المشاعر فى نفسى .

كنت أعتقد فى ذلك الوقت أننى فى أشد الحاجة لأقع تحت تأثير عاطفة ما أو فكرة ما . جاء الأديب مصطفى ليطرق فى خفوت وإصرار عالماً جديداً بالنسبة لى .. ومن خلف قناع حياتى اليومية المكررة كانت تقبع "ثناء" بعد أن تآلفت معها .

أعددت قدحاً من القهوة .. بحثت عن لبن فلم أجد وبحثت عن خبز لأتناول كسرة منه بالزبد مع القهوة فلم أجد .. تناولت القهوة وأنا أتصفح بعض المجلات دون تركيز ، حاولت النوم بعد ذلك .فشلت .. كانت صورتها تطاردنى بإلحاح لم يحدث من قبل .. ندمت على أنى لم أوقظها من النوم لأتحدث إليها ولأريح ذلك الشعور الغامض القادم من المجهول .

ضاع أملى فى النوم تماماً عندما تجاوزت الساعة الثانية صباحاً .. أى أمل الآن؟ لقد وصلت وأنا فى فى قلق بالغ إلى نقطة وسط الدائرة .. لقد حمت حولها كطائرة تريد الهبوط .. كانت هناك نقطة التوازن الشخصى والنفسى .كنت قد حددتها بالضبط عندما رمشت بعينيها الصافيتين صفاء .. العميقتين عمقاً حزيناً من طول تأملى لهما .. كانت تخص خلف أهدابها شعاع نظرة أعرفه جيداً .. ويعرفه كل قلب تعلم فى صحراء الوحدة الروحية ، والغربة العاطفية .

نداء خاص جداً . مبهج وحزين فى ذات الوقت لقد انزلقتُ إلى داخلها برفق وأنا راضٍ مستمتع براحة لم أعهدها من قبل .

ورغم ذلك فإن نقطة ما ظلت تتحدد .. وتتكون كالسحب الممطرة.

لقد خرج خطيبها من حياتها ، ودخل حياتى فى ذات الوقت كشبح غريم لي ولها .

ثم كانت تلك الليلة وما تركته فى نفسها هى من عذاب .. درت حول النقطة الضبابية ،وشك لا مبرر له يغرس دبوساً فى قلبى .. ثم يقيناً.. ثم ضباباً .. كنت إذن أحتاج لكلمة .. نظرة .. لأتخلص من آثار هذا الدبوس الذى لدغ قلبى .

لقد كانت هذه روايتها عن تلك الليلة وما قبلها .

ماذا لو كان فى القصة جزء ناقص لم تذكره.جزء لا تستطيع أن تعترف به.

طفا على سطح ذاكرتى فجأة ذلك المشهد البعيد عندما دفعها " نادر " فى صدرها وتركها دون أن يلتفت وراءه .. لقد حاولت أن تمسك به رغم ذلك فى إصرار الغريق وبنظرة فزعة .

كاد قلبى يسقط بين ضلوعى وهى تسقط على الأرض والباب يصفق خلفه تاركاً قلبها ينبض بمرارة .

في هذه اللحظة المفاجئة بالنسبة لى كانت بداية علاقتى الحقيقية بها.. سراً بينى وبين نفسى .. وكان شعورى عند رؤيتها هو ذلك الشعور القديم الذى شعرت به ورأسانا تحت المظلة التى رفعتها لتحمينى وتحمى

نفسها من قطرات المطر .. عند خروجى من المطعم غاضباً . شعور غامض بأن هناك شيئاً سيجمعنا سوياً .. شيئاً سيحمينا من البرد والمطر .

وعندما رأيتها بعد ذلك على الأرض تبكى مجروحة .. انتابتنى رغبة ملحة فى أن أضمها فى حنان لأخلصها من تعاستها .

جلست على المقعد .. ثم قاومت رغبة عارمة فى الخروج من المنزل والسير تحت الرذاذ الذى انتشر فى هواء الليل كأغنية حزينة رقيقة لشاب متجول يبحث عن نهاية لتجواله وأحزانه .. أزحت الستار عن النافذة فرأيت الشارع يلمع تحت الرذاذ وقطرات المطر وأعمدة الإضاءة التى لا تعرف النوم فى الليل مهما طال .

كان الصمت ثقيلا ازداد مع قطرات المطر الدقيقة الرتيبة .. ازداد صوت الرياح وهى تنفخ فى المدفأة وتعوى .. طقطق السقف متململاً فشعرت بشعور غامض موحش أيقظ وجودى كله . رحت، أنظر إلى سقوف المنازل وهى قابعة فى تلذذ تحت الأفق البارد .

كنت أخطو فى هذه اللحظة إلى حافة البراءة الكاملة .. فلقد اكتشفت امتداداً هائلاً أمامى ذات لحظة .. وافقاً متسعاً بلا حدود .. " أنى أحبها " بشكل أو آخر .. لا .. إنى أحبها حقاً ..

وعندما كان ضوء الصباح يملأ مساحة النافذة زاحفاً فوق المنازل والأشجار كنت قد ازددت . يقيناً بأنى أتحرر من قيود ثقيلة تكبلنى وأنى أجتاز مرحلة كبيرة إلى داخلى وإلى خارجى أيضاً إلى العالم .. كأنى أصحو من كابوس ليلى ثقيل .

كان الضوء يغمر السماء غمراً وأنا أتمطى داخلى بقوة الحقيقة كأعظم اكتشاف بالحب.. لم أذهب إلى العمل وإنما اتجهت إلى المستشفى. كانت الأمطارتمطر مطراً خفيفاً مستمراً كأنه لحن تمهيدى لسيمفونية كاملة قادمة، حتما قادمة وسوف تملأ الدنيا بالخير والبركات .

امتزج ضوء الصباح بالسحب فأعطى الدنيا مسحة شاعرية أثـرت في نفسي . شقشقت العصافير داخل الأشجار التي تقطر ماء وتتنفس أنفاساً رطبة .

دخلت مبنى المستشفى الذى كان دافئاً بفعـل الوسـائل الصـناعية عدوت فى الردهة وصعدت السلالم فى قفزة واحدة إلى الدور الثانى.

اعترضتنى ممرضة حسناء لم أشاهدها من قبل عندما هممت بفتح باب الغرفة ابتسمت فبدت رقيقة كملاك أبيض نزل تـوا مـن السـماء .. أمسكت يدى برفق ومنعتنى من الدخول .

أخبرتنى بأن " ثناء " قد نقلت إلى الدور الأعلى فى قسم العنايـة المركزة منذ أكثر من ساعة .. وأنه من المحتمل أن تجرى لهـا عمليـة جراحية . وعندما رأت الحيرة فى وجهى قادتنى إلى الدور الثالث .

سرنا سوياً فى ردهة بدت لى طويلة إلى أن أوقفتنى علـى بـاب غرفة بها عدة أسرة عليها عدد من المرضى .. أشارت إلـى مكانهـا .. كانت راقدة فى سلام كامل .. وأنبوبة المحاليل مغروسة فـى ذراعهـا .. حاولت أن أقترب منها فمنعتنى الممرضة .. خرجت من المستشفى وأنـا حائر لا أعرف ماذا أفعل ؟

ولا إلى أين أذهب ؟

{٢٣}

عبر مساحات من الخضرة الرائعة التي تمتد حتى الأفــق مبهجــة عدت مع الأستاذ مصطفى حيث اصطحبني في رحلة سياحية إلى مدينــة ستراتفورد التي عاش بها شكسبير. ولهذا سعدت بهذه الدعوة لأنني كنــت أتمنى أن أقوم بهذه الرحلة قبل ذلك. لقد كان الأستاذ مصطفى أديباً ومــن عشاق شكسبير. قمنا بالرحلة بسيارة صغيرة استأجرها عن طريق الفندق. وكانت رحلة رائعة خارج لندن. وفي مدينة شكسبير كان الأستاذ مصطفى منبهراً بمتحف شكسبير واستمتع جداً بزيارة منزله وتفاصيل حياته. وأثناء عودتنا إلى لندن توقفنا في الطريق للتزود بالوقود. دخلنا مطعماً صــغيراً بجوار المحطة لتناول السندوتشات والشاي .وبمجرد دخولنا المطعم وجدنا شيئاً لفت نظرنا وهو اهتمام الحاضرين بشيء ما يذيعه التليفزيون. انتبــه الأستاذ مصطفى فجأة وقال منفعلاً:

- لقد نسيت أن اليوم زيارة السادات للقدس..

انتبهت أنا أيضاً فقد شغلتنا زيارة شكسبير المثيرة عن الحدث الذي كان يترقبه العالم كله في شوق شديد ..

كان الجميع يتابع أحداث هذه الزيارة في قلق بالغ. في حين كنــت أنا غارقاً في ذاتي وعالمي المضطرب. أما خارج هذه الدائرة فقد كنــت محاطاً بالضباب. بدأ الأستاذ مصطفى منتبهاً أشد الانتباه وهو يتابع خطاب السادات في الكنيست الإسرائيلي.

وعندما رحت أستمع إلى كلمات الخطاب شعرت برهبة شديدة. إنها لحظة تاريخية نادرة. كنت عاجزاً عن تحديد موقفي النهائي من هذه الصدمة التي فاجأت العالم. سألت الأستاذ مصطفى هامساً:

- هل تعتقد أن السلام يمكن أن يتحقق بهذه الزيارة؟

أجاب وهو يتابع السادات بتركيز شديد:

- لا يمكن لرحلة أن تحقق السلام. إنها مغامرة خطيرة..

قلت وصورة حطام المدفع وجثث زملائي الممزقة حوله تطفو على ذاكرتي من حين لآخر:

- كيف إذن يتحقق السلام بعد كل هذه الحروب وكل هذه الدماء بيننا وبين إسرائيل؟ مستحيل ..

قال وهو شارد:

- لن يتحقق السلام مع الغير إلا عندما نحقق السلام داخلنا أيضا.

إن قضية فلسطين كانت تحدياً كبيراً لمجتمعاتنا .. وللأسف حتى الآن فشلنا جميعاً في هذا التحدي.. دولاً وشعوباً .. وحكاماً ومحكومين.

شعرت بالحيرة وأنا أتابع الحدث التاريخي الهام. كنت أريد أن أفسر طلاسمه. تساءلت في حيرة:

- كيف يتحقق السلام داخلنا إذاً؟

قال بحدة:

– عندما يتحقق الحد الأدنى من العدل. هنا نستطيع أن ترفع رأسك وتطالب بحقك. بالقوة أو الحوار، لأن العالم سيحترمك.

أكمل قائلاً:

– ما دام هناك حكام عرب يعاملون الشعوب كأنهم عبيد بلا حقوق. فالسلام لن يتحقق.

قال بمرارة وهدوء أفزعني:

– إن الظروف التي تعيشها الشعوب العربية الآن .. ستؤدي إلى ظهور أجيال قادمة ستكفر بكل شيء.. وستدمر كل شئ.. لهذا فالمستقبل مظلم للمنطقة كلها إذا لم يتحقق العدل.

قلت:

– وإسرائيل؟ والشعب الفلسطيني؟ هل سنحارب إلى الأبد للحصول على حقوق الشعب الفلسطيني؟

قال وهو يهز رأسه:

– لقد فقدنا عشرات الآلاف من الضحايا.. وعشرات السنين. دون نتيجة.. ورحلة السادات محاولة للقفز على الواقع. لأننا لم نعرف قواعد اللعبة العالمية.وقواعد الصراع السياسي والعسكري لأن الديكتاتوريا هي التي تحكمنا ..والشعوب العربية مكبلة وواجبها أن تقدم الشهداء فقدط.

قلت وأنا أزداد حيرة:

– إذن أنت تؤيد رحلة السلام.

قال مستسلماً:

- علينا أن نحكم بالنتائج. هذه الرحلة دافعها هو اليأس وليس الأمل.. وإسرائيل ومن ورائها الولايات المتحدة والغرب كله لم تستسلم بسهولة. اختلطت مشاعري وقلت في قلق:

- أين إذن الخلاص؟.. الحروب لم تحقق شيئاً .. والسلام صعب الآن.لأن إسرائيل مصممة علي الاحتلال والتوسع .

نظر إلي بثبات وقال:

- للأسف الشعب الفلسطيني دفع ثمن أخطاء العالم كله..

****

ذهبت لزيارة "علي" بعد عودتي من الرحلة فوجدته مشغولاً جداً. فاتجهت لزيارة "جورج" وأمضيت معه بعض الوقت وكان قد حضر لتوه من الامتحان. حضرت زوجته من العمل بعد ذلك.. وعندما أخبرتني بأنها قد أعدت أكلة مصرية "ملوخية" قلت لها مازحاً وأنا أحاول أن أهرب من خيالي الذي ثبتت فيه صورة لا تتحرك.. "ثناء" وهي ممددة على الفراش مريضة:

- من الصعب أن أقنع نفسي بالذهاب إلى المنزل الآن.. تحت ضغط هذا الإغراء.

انضم إلينا سمير. وكان موضوع الحديث هو زيارة السادات لإسرائيل. كان الكل يشعر بالمفاجأة التامة. راح "سمير" يقرأ لنا تعليق الصحف البريطانية. كنا نتابع رد فعل الحدث في العالم باهتمام من

القنوات التليفزيونية وإذاعة ب ب سي٠٠ فقد صمتت الشعوب العربية كأنها لا تصدق ما يحدث٠ على العكس من ذلك كانت شعوب الدول الغربية والعالم متحمسة لهذه الزيارة التاريخية٠ بعض حكام الدول العربية اتهموا السادات بالخيانة٠ أما المنظمات الفلسطينية فقد رفضت السلام مع إسرائيل وأعلنت إصرارها على استمرار المقاومة حتى انتهاء احتلال إسرائيل للأراضي الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس الشرقية٠ رقص الشباب الإسرائيلي في الشوارع لا يصدق ما يحدث حوله أما السادات فقد صلى في المسجد الأقصى وسط حصار أمني صارم ومتجهم. ومن البعيد كانت تصل الهتافات الرافضة لهذه الزيارة٠ كان وجودنا على مسافة بعيدة جداً من الأحداث٠ ووسط مجتمع غربي يعطينا فرصة للمشاهدة بهدوء ودون انفعال٠ كان الحدث في بؤرة اهتمام العالم كله ولا أحد يعرف ماذا سيحدث في المستقبل٠

اتجهت إلى المنزل بعد شراء بعض الأشياء التى أحتاجها من أحد محلات "السوبر ماركت" جبن .. خبز .. صابون .. أمواس حلاقة .. شاى.. قهوة ..

عندما عدت إلى المنزل ووجدت خطاباً من مصر .. وآخر من صديق لى فى إحدى الدول العربية وخطاباً من أحد المعاهد التعليمية جاء رداً عن استفساري عن الدراسة وتكاليفها.

{٢٤}

كنت مستلقياً على الفراش سابحاً فى فضاء لا نهاية له حينما سمعت طرقاً خفيفاً على باب الحجرة .. أيقظنى من شرودى وهبطت من فضائى وعندما فتحت وجدت الأستاذ مصطفى أمامى .. كأن السماء قد أرسلته لى لينقذنى من تحت طبقات حزينة لا نهاية لها .

دخل مبتسماً مرحاً ، سألنى عن عينى الحمراوين فوجدت صعوبة فى أن أتكلم .

أعتقد أن حالتها تزداد سوءاً عكس ما كنت أعتقد .

تجهم قليلاً . وكان يغالب شعوراً بالمفاجأة .. تأمل وجهى كله بنظرة شاملة من عينيه العسليتين الذكيتين .كان يبحث عن معنى جديد اكتشفه أخيراً :

- أنت تحبها ..

قلت يائساً :

- أخشى أن تزداد حالتها سوءاً .

رنت لحظة صمت طافية فوق بحيرة من حزن صاف وقال وكأنه يخرجنى من عالمى دفعة واحدة :

- هلى ستأتى معى ؟

نظرت إليه طويلاً . أكمل قائلاً :

- سأذهب إليه اليوم ..

تساءلت بفزع :

- ستقابله وجها لوجه ؟

قال بتحد وإصرار غمر وجهه كله :

- مع بطل مأساتى وجهاً لوجه .

هتفت مضطرباً :

- الشر ؟

كان جاداً ، هادئاً ، واثقاً أكثر من أية مرة سابقة .

- إنها فرصتى الوحيدة لأحرر نفسى .. ولن أدعها تفلت .

قال وهو يربت على كتفى :

- تماسك أمام قلقك وأتمنى أن تكون معي .. بل أطلب منك ذلك .

- أنا ؟

استند على حافة المقعد ذى الذراعين الذى يتوسط الحجرة وشرد لحظة :

- لتشاهد شيئاً قد لا تشاهده طول حياتك .. إنها لحظة مواجهة الحقيقة وهذا شيء نادر في حدوثه في الحياة ..

سألته عن ميعاد ذهابه فأخبرنى بأنه سيكون قبل منتصف الليل بقليل .

نظر إلى الأرض طويلاً كأنه يتأمل قاع جب لا قرار له .. بدت ملامحه جديدة على تماماً. وجهه المستطيل .. أنفه المدبب بعض الشيء .. جبهته المتسعة . لمس ذقنه بيده فى حركة لا شعورية وراح يحكها .. تنهد وقال يستعد للذهاب فجأة كما جاء :

- سأمر عليك .. ولك أن تقرر ..

ذهب كما جاء ليتركنى وحدى فى فضاء الحجرة معلقاً ..

مرت الساعات دون أن أدرى إلى أن وجدته مرة أخرى أمامى بعد أن فتحت الباب لم يطلب منى صراحة الذهاب معه .. لأننى كنت مستعداً للذهاب دون أن يطلب.. بإرادة غائبة عن الوعى تماماً .. فقد كنت أختنق تحت وطأة مشاعر وأفكار مضطربة هائجة رغم صمتى وسكوتى الظاهر. كنت قد مت فعلاً عشرات المرات من قبل .

ركبنا سيارة يقودها رجل لم أتعرف على ملامحه جيداً ولم يحرص هو على أن يقدمنى إليه أو يقدمه إلى .. ولكنى عرفت أنه عربى عندما تبادلا عدة كلمات عربية .. سرنا فى اتجاه الشمال ونحن نخوض فى المخاضات الليلية الباردة .. والشوارع خالية .. وبعد مسيرة ثلث ساعة على وجه التقريب كنا ندخل منطقة فخمة المبانى .. أنيقة .. أضاف إليها ضوء أعمدة الأضاءة الشاحب الساقط على زواياها وعلى الأشجار والأسوار المحيطة بها مسحة من السحر والغموض .

نزلت أنا والأستاذ مصطفى من السيارة بعد أن توقفت فى شـــارع هادئ تماماً . ظل العربى الآخر على عجلة القيادة لا يتحرك صعدنا منزلاً أنيقاً يرتفع ثلاثة طوابق لا غير.

دق الأستاذ مصطفى جرس باب إحدى الشقق .. فتح لنا بعد عـــدة ثوان قضيناها فى قلق بالغ .. كان رجلاً مصرياً تبدو عليه سيماء العظمة والثراء والسلطة إن لم يخب ظنى .. صافحنا مبتسماً وأبدى دهشـــته ثـــم سعادته بهذه الزيارة المفاجئة رحب بالأستاذ مصطفى ثم تأملنى طويلاً عله يتذكر أين رآنى من قبل ففشل .

قدمنى إليه الأستاذ مصطفى على أننى قريب له أدرس الطب فـــى إنجلترا .. سعدت بهذا التقديم الكاذب .

جلسنا نحن الثلاثة فى قاعة الاستقبال ذات الضوء غيـــر المباشـــر واللوحات الفنية الحديثة تغطى مساحات كبيرة من الجدار .

كان الرجل وسيماً ، سميناً ، ضاحكاً ، وثقته بالنفس بدت بلا حدود. همس الأديب فى أذنى " إنه هو شخصياً " (عندما استدار الرجل للحظـــة بعيداً عنا) ورغم أننى كنت أتوقع ذلك فقد دهشت حقاً .. فقد كنت حتى هذه اللحظة معجباً به ،بل شعرت بأنه من الممكن أن أحبـــه ،شـــربنا كئـــوس عصير الأناناس التى قدمها لنا بنفسه وكان يبدو أنه وحده بالشـــقة.. قبـــع حولنا صمت فخم رائع ، كالكلب الأليف المدلل .. شعرت للحظة بأن كـــل شيء يسير الآن وفق خطة محددة غامضة .

دق جرس الباب مرة واحدة وعندما انتهيت من كأس الأناناس كان الرجل قد أعطانا ظهره وفى طريقه لأن يفتح الباب .

مرت حوالى عشر سنوات في الثواني قبل أن أسمع صوت ضربة معدنية مكتومة .. ثم " آه " تنبع من أعماق الصدر .. ثم سقوط شيء ثقيل على الأرض مع اندفاع الدماء من رأسه .. انطلق الأستاذ مصطفى في اتجاه الباب..عدوت خلفه بعد أن توقف تفكيرى تماماً . كدت أن أتعثر فى جثة الرجل الممدة على الأرض . وفى لحظة خروجى من الباب أشار لى الأستاذ مصطفى إشارة حازمة ثاقبة حادة "أغلق الباب" .

نفذت رغبته آلياً .. { فقد أعاقت ساق الرجل الباب }. أزحت جثته إلى الداخل ورعب هائل يتملكنى . كانت رأسه تنزف بغزارة .. سالت على وجهه الدماء وكونت دائرة تحت رأسه .

لحقت بهما لدى الباب الخارجى للمبني .. أشعل الأستاذ مصطفى سيجارة متصنعاً الهدوء ثم ركبنا السيارة وانطلقنا عائدين .

كانت شوارع منتصف الليل خالية من المارة .. لهذا فتحت دروبها لنا وانطلقنا فيها دون أن ننظر إلى الخلف .

أنزلونى بالقرب من المنزل وانطلقوا إلى حيث لا أعلم وأنا لا أفهم٠٠ ماذا جرى بالضبط٠

دخلت حجرتى وتمددت على الفراش وأنفاسى مضطربة وصدرى يعلو ويهبط كالمنفاخ .. وأنا أحاول أن أجمع نفسى المشتتة فى أركان العالم.

أمضيت بالمنزل يومين متتاليين لا استطيع الخروج .. لم أفعل شيئاً سوى محاولة الاتصال بالمستشفى للاطمئنان على حالة " ثناء " وفى المرة

الثانية أخبرونى بأنها لا تستطيع أن تحدثنى لأنهـا فـى طريقهـا لغرفـة العمليات .

لم أنم طوال اليومين .. كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشـرة من صباح اليوم الثالث ..

عندما سمعت طرقاً متواليا على الباب .. تجمدت مكانى .. ولـولا سماعى لصوته ما فتحت .وقف الأستاذ مصطفى أمامى متألقاً بابتسامة لا حدود لها وسط وجه مستدير بسيط يشع هدوءاً وراحة وثقة .

وقف وسط الحجرة وضوء هادئ عميق نفاذ ينبعث من عينيه .. لقد أصبح رجلاً آخر تماما .

- جئت لأودعك ..

لم أتكلم من المفاجأة رحت أقارن رغماً عنى بـين صـورته الآن وصورته بالأمس .. قال مهنئاً نفسـه وقاطعـاً شـرودى اللحظـى مـن المنتصف:

- الآن .. انتصرت على نفسي .

قلت فزعاً:

- هل القتل هو النصر؟

أجاب واثقاً:

- لا ٠٠ كان لابد من وقف مزيد من التدمير ٠٠ هو هارب مـن العدالة ٠

كرر هامسا:

- هذه حالة خاصة جداً٠

قال وهو يستعد للانصراف:

انس هذا الموضوع الآن٠ كأنه لم يكن٠

أمسكت به قبل أن يذهب وسألته وأنا في فزع:

- من أنت؟ وما هي حقيقتك؟٠٠

أجاب ساخراً:

- سؤال متأخر جداً٠

سألته بفزع أشد:

- هل قتلت الرجل حقاً؟٠٠

أجاب مستنكراً:

- أي رجل؟٠٠

هز رأسه محذراً وقال:

- قلت لك إنس الموضوع٠ ولا تتخيل أشياء لم تحدث أبداً٠٠

أجاب بصوت هامس حاد:

- وأيضاً.. لا يوجد أحد باسم مصطفى فهمي في الحقيقة نهائياً··

استدار بقوة وأغلق الباب خلفه، شعرت بالدوار وألقيت بنفسي على الفراش··

بقيت فى الحجرة .. ولم أنم إلا حوالى ساعة نوماً متقطعاً . وعندما شعرت بدبيب الحياة فى الخارج قمت وأزحت الستار من أعلى النافــذة .. كان النهار قد ملأ الشوارع بالحياة .. مع المطر .. أعددت قدحاً من الشاى شربته وأنا أرتدى ملابسى على عجــل .. كـــان علـــى أن أذهـــب إلـــى المستشفى.. مهما كلفنى ذلك .

أخذت أول تاكسى صادفته بعد خروجى من المنــزل .. وعنــدما وصلت المستشفى صعدت إلى حجرتها فى قفزة واحــدة .. عــدوت فـــى الردهة .. وقبل أن أصل إلى حجرتها وجدت نفس الممرضة القادمة مـــن السماء تعترضنى بابتسامة عرفت معناها فيما بعد .

نظرت فى عينى طويلاً قبل أن تقول :

- لقد نقلت من الحجرة ..

تساءلت لاهثاً :

- هل تحسنت حالتها ؟

رفعت حاجبيها فى دهشة ..

- ألم يخبرك أحد ؟

هززت رأسى وأنفاسى تتلاحق .. أكملت كمشرط الجــراح الــذى يقطع فى الجسد قطعاً .

- لقد جئت متأخراً.. لقد ماتت منذ ساعتين فقط .

{٢٥}

توقف الرذاذ إلى حين وكأنه يستريح . وراحت السحب السميكة تلتحم مع بعضها البعض داكنة صامتة متجهمة دون سبب . راحت تقترب من سطوح المنازل أكثر فأكثر حتى تكاد تلمس فوهات المداخن وقمم المنازل العالية كأنها تريد أن تحمى المدينة كلها من خطر مجهول يحدق بها. تحولت سماء لندن إلى لوح من الرصاص البارد . سرت مخترقاً الهايدبارك صامتاً تحت معطف مبتل وأنا أخوض فى البرد الكثيف كمياه مستنقع متجمد .

كانت الأشجار تقف حولى داكنة بلا أوراق وسط أمواج من اللون الأخضر تناهى إلى سمعى جوف المدينة البعيد هادراً عميقاً كصوت بحر هائج يزمجر غاضباً .. تسللت البرودة خلال الحذاء إلى أصابع قدمى .

جلست على الأرض ناظراً فى اتجاه البحيرة التى خلت تماماً من الأمواج، والارتعاشات حتى بدت كقرص من الحديد المصقول .. سبحت بطتان داكنتان فترقرق الماء وعكس الضوء مرتعشاً ممتداً حتى لامس الشاطئ. كانت الحشائش الخضراء مبتلة من المطر والأشجار كلها تغفو خلف غلالات رقيقة من ضباب الصباح الدخانى الشاحب.

طار فوقى سرب من الطيور الرقيقة الداكنة على شكل قوس واسع متجهاً إلى الغرب تابعتها بنظرى وهى ترحل وتذوب فى الأفق .

دار بالقرب منى منشار كهربائى .. راح أزيزه ينشر الصمت الحزين الذى غرقت فيه كما ينشر ساق الشجرة الداكنة . وبعد لحظات تهاوت بالقرب منى شجرة عملاقة متغضنه اللحاء .. تهاوت فى بطء

وحزن وشرود تمددت على الأرض أخيراً ناشرة أغصانها حولهـــا كطائر مصاب سقط من السماء .

أهاج هذا المشهد صمتى وهزنى من الأعماق .. خفق قلبى حـــائراً وشعرت بصعوبة فى التنفس .. مضيت من فورى متجهـــاً إلـــى منزلـــى والصباح حولى رائق ساحر.

أغلقت على نفسى الحجرة طول النهار .. وفى بداية الليل والأمطار تسح بالخارج دون توقف .. استندت على المنضدة ووجدت دموعى تنهمر دون سيطرة منى.

{٢٦}

بقيت وحدى طوال النهار . وفى بداية الليل شعرت بانقباض.. وخوف فقد أصبحت وحدى تماماً بلا قوة تعيننى ولا فكرة ترشدنى فى عالم متسع لا حدود له . أرعبتني فكرة أنني شاركت في جريمة قتل.

خرجت مستتراً بالليل أمضى دون هدف والشوارع تبدو كدروب مظلمة فى غابة متحجرة . راحت أعمدة الإضاءة تهمس أسراراً ضوئية لا نهاية لها للأغصان .

هطلت السماء فجأة مطراً شديداً لم أشهده من قبل .. دخلت إحدى البارات لأخفف من قلقي وشربت لأول مرة ليشتعل جوفى اشتعالاً وتتأرجح الدنيا فوق رأسى كما تتأرجح سفينة فوق أمواج عاتية .

راحت النسائم الدافئة المجهولة تهب من الداخل .. كنت مطارداً من شيء اختفى خلف الليل وكل الليالى شيء مبهم مستتر. تطاير صوت خطواتى حولى كالرذاذ .. سحقتنى أشواقى وحنينى إلى المجهول الأفقى البعيد .

ذهبت إلى " على " وإلى سمير وإلى " جورج " لم يكن هناك أحد لقد فرغ العالم كله .. وأصبحت وحدى فى مواجهة الليل ونفسى واتهام صامت ظالم بالجريمة..

عندما كنت أمر بالقرب من إحدى الحانات القريبة من منزلى وجدت شاباً يعترضني لا أعرفه ولا أذكره .. قد يشبه مايكل صديق زوجتي لم أنتبه إليه وسرت فى طريقى إلا أنه دفعنى دفعة قوية وهم

بالهجوم على دون أى سبب .سدد لى ضربة قوية تجنبتها بصعوبة بالغة. لقد عرفته في هذه اللحظة. فقد كان عشيق مارجريت حاولت أن أرد له نفس الضربة ، إلا أنه ابتعد ، وهم بالجرى .عدوت خلفه واستطعت أن أعوقه فسقط على الأرض وأنا فوقه.. انقض شخص آخر على من الخلف وراح يضربني بعنف من الخلف وهو يقول:

- غريب قذر.

وصوت آخر:

- عربي دموي..

عضضته فى مؤخرته لأتخلص منه .. ونهضت فاعترضنى شخص ثالث وهو يقول :

- "سأقتلك " ..

دارت معركة قصيرة بينى وبينهما انهاها صوت سيارات الشرطة فى نهاية الشارع .. ركلتهم بشدة وأنطلقت عدوا والليل يتداعى حولى ويتكسر .. و طعنة بمطواه حادة شقت معطفى وجرحت كتفى .. تيبس كل شيء فى نفسى .. ورحت أمضى طافياً فوق الدنيا كلها هائماً .. غائباً كسحابة مسافرة أو حلم يتكسر. صرخت فى سمعى صوت سيارات الشرطة بعيونها النابضة بالضوء .اهتزت أشجار الخوف داخلى مجنونة فزعة .

جريت من شارع إلى شارع ، وعندما شعرت بإنهاك شديد جلست على الأرض وأسندت رأسى على جدار بارد ..

لقد انطلقوا مبتعدين في كل الاتجاهات.

كان صوت سيارات الشرطة لا يزال يطاردنى من كل جانـــب .. وومضات ضوئها فى خيالى .. أصبح الليل فوقى كوخاً غرست فيه السهام المشتعلة وراح يحترق ويصل إلى سمعى صوت طقطقة الحريق ورائحـــة الدخان تفوح حولى وتملأ أنفى .. " أنقذنى يا رب " .. ردتهـــا أعمـــاقى السحيقة وتساءلت.

- هل هي النهاية؟.

نظرت إلى السماء العميقة فوقى فى شوق بالغ ونجوم صافية تطل على من أعلى .. ؟

فكرت فى النهوض.. ولكننى تراجعت مفضلاً انتظار النهار جالساً فى مكانى والدم ينزف منى .. تأرجحت بين الفكرتين دون نهاية .. وأنـــا أنظر إلى قلب السماء العميق والجرح ينزف بغزارة .

انـتـهـت

عصام دراز

Email : Londonipress .deraz@yhoo.com

Elmanar deraz@yohoo.com

2008

قريبـاً مع الباعة

رواية

قصـة حـب من يونيـو ٦٧

عصـام دراز

أروع روايات الحرب في العـالم

مطبـعة العمرانيـــة للاوفســت
الجيزة : ٣٣٧٥٦٢٩٩

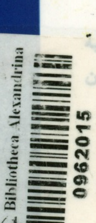
هذه الرواية

" الدموع والمطر " رواية سيمفونية : تعتمد علي الإيقاعات الداخلية الخافتة المتدفقة كالموسيقي ..

إنها رواية الإنسان في مواجهة الغربة . عن الأحلام عندما تتحطم . والعواطف المتدفقة في البلاد الباردة . تسجل بعمق مشاعر أحاسيس شاب مصري هاجر إلي بريطانيا . ليبحث عن أمل ويتخلص من ألم عميق يطارده. في غربته . تحت المطر وحيداً في جوف الليالي الباردة ..

عصام دراز :

- عضو اتحاد الكتاب فاز بالعديد من الجوائز الأدبية .
- صدر له العديد من الروايات والقصص القصيرة والدراسات العسكرية ..
- ضابط سابق بالقوات المسلحة . شارك في حروب ٦٧ .حرب الاستنزاف . والإعداد لحرب أكتوبر ٧٣..
- عمل معداً لأكثر من برنامج في هيئة الإذاعة البريطانية B.B.C لمدة ثلاث سنوات وكانت نقطة الانطلاق من لندن ..
- مراسل ومدير وكالة لندن برس العالمية بالقاهرة ..



المنار الجديد

القاهرة- عمارات رابعة الاستثماري - مدينة نصر - عمارة١- شقة

ت: ٢٤١٥٨٧٩٢   فاكس: ٢٦٩٠١٠٦١